الزهراء

ج ٢ : م ١ | القاهرة | ١٥ صفر ١٣٤٣

القومية عند العرب

لغة الامة دليل نفسيتها — القومية العربية جسم حي — الصلة بين أعضاء هذا الجسم العرب كلهم شيء واحد — العرب وملوكهم الاعاجم — نحن ولغتنا اليوم

﴿ لغة الامة دليل نفسيتها ﴾

يرى المشتغلون بالقانون أن مجموعة القوانين في أمة من الامم مرآة أخلاقها ، وترجمان سجاياها . لانه ما من مادة وضعت في قانون حكيم الا لحاجة أخلاقية عامة دعت الى وضع تلك المادة فيه . وهذه القضية صحيحة لو لا أن آفة التقنين التقليدُ ولاسيما في الشرق لعهدنا هذا ؛ لأن الدولة وهي في دور ضعفها لا تستمدُّ قانونها من نفسيتها ، ولا من الاحكام التي أنِسَتْ بها عصوراً طوالا ؛ بل تترجمه من لغة دولة أقوى منها ، مكتفيةً بما تدخله عليه من تعديل ظاهري . هذا اذا كانت الدولة الضعيفة مطلقة اليد في سن قوانينها ، وأما التي تتصرف فيها يد الاستعمار فقوانينها أكذب دليل عليها

ويرى آخرون أن جداول الاحصاء أصدق من القوانين دلالةً على مستوى

الامة الاجتماعي ، لأن الاحصاء تاريخ ساكن والتاريخ احصاء متحرك ، كما قال شلوزر . وهذه القضية صحيحة أيضاً لو كانت أرقام تلك الجداول تُجمع دائماً بطريقة من الحصر والاستقراء تطمئن اليها النفس ؛ وهو مطلب عسير في كثير من الامم ، وأكثر منها عدداً الامم التي ليس فيها إحصاءٌ قط

ونحن مع القائلين بان لغة الامة دليل نفسيتها ، وصورة عقليتها ؛ بل هي أسارير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر ، وفي تطورها التاريخي الغابر . لأن وراء كل لفظة في المعجم معنى شعرت به الامة شعوراً عاماً دعاها الى الإعراب عنه بلفظ خاص ، فوقع ذلك اللفظ من نفوس جمهورها موقع الرضى ، وكان بذلك من أهل الحياة . وما معجم اللغة الا مجموعة للمعاني التي احتاجت الامة الى التعبير عنها فاختارت لكل معنى منها لفظاً يدل على الجهة التي نظرت الامة منها الى ذلك المعنى عند ما سمته باللفظ الذي اصطلحت عليه . فلغة الامة تتضمن تاريخ أساليب التفكير عندها ، من ابسط حالاته الى أرقاها ؛ يعلم ذلك البصير في أبنية اللغة وتلازمها ، ومن له ذوق دقيق في ترتيب تسلسلها الاشتقاقي

﴿ القومية عند العرب جسمٌ حيّ ﴾

لا أحسبني مُحْدِثاً في لغة العرب وتاريخها بدعة اذا قلت ان للعرب قومية نامية نماء الكائنات العضوية ؛ فالعرب تمثلوا في قوميتهم معنى الجسم الحيّ النامي منذ أقدم العصور ، بل منذ نطقوا بلغتهم هذه ذات الاسرار العجيبة التي تشرّفنا بوراثتها عنهم

تنقسم القومية العربية عند اهلها الى شعوب ، والشعوب الى قبائل ، والقبائل الى عمائر ، وبعد العمائر البطون ، وتحت البطون الأفخاذ ، تليها الفصائل

أما الشَّعب فمأخوذ من شَعَب الرأس وهو شأنه الذي يضم قبائله كما في

الصحاح (مادة شعب) قال : وفي الرأس أربع قبائل . والشأن واحد الشئون وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجيء الدموع

وأما القبيلة فهي في الأصل العظام المشعوب بعضها الى بعض الى أن تصل بينها الشئون المتقدّم ذكرها . قال الجوهري (مادة قبل) وبها سميت قبائل العرب

وأما العمارة فهي من الانسان الصدر . قال الزبيدي في تاج العروس (مادة عمر) : سمي الحي العظيم عمارة بعمارة الصدر وجمعها عمائر

والجماعة من العرب التي تسمى بطناً هي دون العمارة وقد سميت بطناً لأنه دون الصدر

وكذلك الحال في الجماعة التي يطلق عليها اسم الفخذ

والفصيلة رهط الرجل الأدنون . قال الزبيدي في التاج : وهي بمنزلة المفصل من القدم . ونقل ابن الأثير في النهاية عن الهروي أن أصل الفصيلة قطعة من لحم الفخذ

قال القلقشندي في صبح الأعشى (١ : ٣٠٩) : وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحيّ

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ : ٥٦ بولاق) : وقيل للجماجم جماجم لأنها يتفرّع من كل واحدة منها قبائل اكتنفت بأسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتنفٌ باسمه معروفٌ بموضعه

ويقولون (الاشلاء) لبقايا القبيلة التي انحلت جامعتها وتفرّقت في غيرها ، أخذوها من الشلو وهو العضو من أعضاء اللحم . وفي الصحاح أشلاء الانسان أعضاؤه بعد البِلى والتفرق

قال ابن رشيق في العمدة (٢ : ١٥٤) : وزعم أبو أسامة ـ فيما رأيتُ بخطه

وقد عاصرته وكان علاَّمة باللغة ـ ان هـذه الطبقات على تأليف خَلق الانسان الأرفع فالأرفع : فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلته ، ثم العمارة . قال : والعمارة الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال : وهي الساق أو قال المفصل ـ الشك مني أنا ـ قال : والحي أعظم من الجميع لاشتمال هذا الاسم على جملة الانسان

قلت : وقد صنَّف العرب في هذا المعنى ، ولعبد الله بن محمد بن محمد الصغير رسالة فيه تقع في بضع صفحات في مجموع رقم ٣٣٢ من كتب اللغة في الخزانة التيمورية

﴿ الصِّلة بين أعضاء هذا الجسم ﴾

كانت العرب في كل أدوار التاريخ تعتزّ بوحدتها القومية فتغتبط أعضاؤها الاجتماعية بالخير يصيبه عضوٌ منها أو مجموعُها ، وتجزع للشرّ يصيب عضواً منها أو مجموعَها

ومن أمثلة ذلك أن اليمانيين لما قاموا بقيادة سيف بن ذي يزن لاخراج الحبشة من وطنهم ـ مستعينين على ذلك بالفُرْس بعد يأسهم من عون الروم ـ فانتصر ابن ذي يزن عليهم وردّ الى ذلك الجزء الكبير من بلاد العرب حرّيته واستقلاله ؛ رأى العرب أن لهم نصيباً من هذا النصر الذي ساقه الله الى بني قومهم اليمانيين ، فأتت وفود عدنان تهنيء مَلِكَ قحطان . وقد روى الحافظ ابن عساكر (١ : ٣٦١) عن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ان فيمن أتاه من الوفود وفدَ قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جُدعان ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبد مناف بن زهرة في ناس من وجوه قريش ؛ فقدموا عليه صنعاء فاذا هو في رأس (نُعمدان) . قال مؤرخو العرب وخطب عبد المطلب

ابن هاشم فكان فيما قاله لابن ذي يزن :

« أنت ـ أبَيْتَ اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد ، ورأسها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف . ولن يُهلك الله من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه »

وقال له أبو أمية بن أبي الصلت أحد رجال ثقيف :

اشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً في رأس (غمدان) داراً منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك اسبالا

ولما سئم عرب العراق تسلط الفرس على أطراف بلادهم ، ومحاولتهم النيل من حريتهم واستقلالهم ؛ انتهزوا فرصة تضافروا فيها مع هاني، بن مسعود في يوم ذي قار على الفرس واستظهروا عليهم ، فقال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن أوتي النبوّة بعدُ ـ :

« اليومَ انتصفتِ العربُ من العجم »

وظل العرب بعد الاسلام ينظرون الى هذه الواقعة كنظرهم اليها في زمن حدوثها . وفيها يقول أبو تمام حبيب بن أوس :

أُلاكَ بنو الافضال لولا فعالهم دَرَجْنَ فلم يوجد لمكرُمة عقبُ
لهم يومُ ذي قار مضى وهو مفرد وحيدٌ من الأشباه ليس له صحبُ
به علمت صهبُ الأعاجم أنه به أعربت عن ذات أنفسها العربُ
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لأسنام ولا صلبُ

وقال حبيب أيضاً :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطّدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب (١)

﴿ العرب كلهم شيء واحد ﴾

ان وحدة الناطقين بالضاد قضية معروفة عند العرب من عهد عهيد . ومن شواهد ذلك ما رواه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في البيان والتبيين (٣ : ١٤٥) من أن الخواصّ الخلص من النزارية يرون ان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام بعث نبياً مصلحاً للعرب كلها ، غير مختص بالحجاز وأهلها . فان هؤلاء الخواص من النزاريين قالوا : « ان العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الاعراق ـ من جهة الخُئولة المردَّدة ، والعمومة المشتبكة ـ ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء . فهم من ذلك شيء واحد : في الطبيعة ، واللغة ، والشمائل ، والمراعي ، والرأية ، والصناعة ، والشهوة . فاذا بعث الله عزّ وجل نبياً من العرب فقد بعثه الى جميع العرب ، وكلهم قومه . ولأنهم جميعاً يدٌ على العجم ، وعلى من حاربهم من الأمم ؛ لأن تناكحهم لا يعدوهم ، وتصاهرهم مقصور عليهم . قالوا : والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة

---

(١) يشير ابو تمام رحمه الله الى حادثة تاريخية ، وهي أن حاجب بن زرارة التميمي وفد على كسرى في سنة جدب ، فشكا اليه محل الحجاز عامئذ ، وطلب منه حمل الف بعير برّاً على أن يعيد اليه قيمتها . فقال له كسرى :

— وما ترهنني على ذلك ؟

قال حاجب : ـ أرهنك قوسي !

فاستعظم كسرى همة حاجب بن زرارة وقال :

— قبلت !

وأعطاه حمل ألف بعير برّاً . ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته ، وطلبوا من كسرى قوس ابيهم . فافتخرت تميم بذلك ، وأشار أبو تمام ببيتيه الى هذه المفخرة

ربما كانت أوغل من المشاكلة من جهة الرحم . نعم ، حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه ، وربما كانت أشبه به خَلقاً وخُلقاً ، وأدباً ومذهباً »

﴿ العرب وملوكهم الأعاجم ﴾

رأى القراء فيما نقلناه في العدد الماضي من أقوال الدكتور دوزي انه لم يرث أحد على سطح الغبراء نصيباً أوفر من نصيب العربيّ في الحرية ، ولا قسطاً أعظم من قسطه ؛ حتى أن عدم اقراره بالعبودية لأحد غير الله في كلمة « لا إله إلا الله » دليل تمسكه الشديد بحرّيته وعضه عليها بالنواجذ . ونحن اذا نظرنا الى الأمة العربية وبلادها نظرة تاريخية وجغرافية نرى أنها أقل بلاد الله خضوعاً للغريب واخلاداً الى حكمه . وانها ـ سواء كانت بدوية أو حضرية ، وجاهلة أو مهذبة ، ومتوسطة في موقعها أو متطرّفة ـ لم تتنازل قطّ عن حريتها ، واذا اضطرت الى ذلك حيناً من الدهر تبيت الليالي والشهور والسنين تتحيّن الفرص للخلاص . وقد مضى في أثناء هذا المقال حديث قيام اليمانيين لاخراج الحبشة من أرضهم ، وهبوب العراقيين للانتصاف من جيرانهم الذين انتقصوا من حريتهم ؛ وما برحت الليالي في الشرق العربي حُبالى ، وليس بعيداً أن يلدن العجائب

يقول الدكتور غُستاف لوبون في فصل « سر عظمة العرب » من كتابه عن حضارتنا : « ليس التاريخ الا رواية الأحداث والأفعال التي قام بها الناس سعياً وراء المطمح ، ولولا هذا لظلّ الانسان على بربريته ، ولما كان له من المدنية نصيب . وان انحطاط الأمة يبتديء يوم لا يكون للأمة مطمح تحترمه بجملتها فيدافع كل فرد منها بنفسه في سبيل حمايته والذّود عنه »

ونحن اذا تتبعنا تاريخ العرب في جميع الأدوار ، وراقبنا خُلقهم السياسيّ العام ، لنتبين مطمحهم القومي الثابت بعد انتقالهم من حياة القبيلة الى حياة الدولة ،

نجدهم ظلوا متمسكين بأهداب الحرية للفرد ، فهي أثمن ذخائرهم وأعزُّها عليهم ؛ وفي تاريخهم من شواهد ذلك العجب العجاب . أما نظرهم الى الدولة فكان وليدَ رأيهم القديم في القبيلة ؛ وقد علمنا مما كتبه الدكتور دوزي أن إمارة القبيلة لم تكن الامر المهم في حياة العرب الاجتماعية بل أعباء الإمارة هي الأمر ذو البال.

لذلك رأينا الأمة العربية ـ بعد غلطة العباسيين الكبرى في اصطناع الموالي وتقليدهم زمام أمر الدولة ـ قد أرضاها بعضَ الرضى سلوكُ مَن ملك البلاد من الأعاجم مسلك الدول العربية في اتخاذ لغة القرآن لغة رسمية للدولة ؛ فلا آل بويه ، ولا آل سلجوق ، ولا بنو أيوب ، ولا حكومات المماليك والطوائف ، ولا أي ملك من ملوك الأعاجم في البلاد العربية حدّثوا أنفسهم باضطهاد لغة العرب وآدابها ، بل ان كثيرين منهم كانوا حاملي لوائها ومؤيدي علومها . وكل من حكم بلاد العرب من الملوك الأعاجم انما وصل الى مراتب الحكم لدخوله في دين الاسلام ومواصلته خدمة حضارته . وقد ظهر من بينهم ملوك أتقياء عقلاء عادلون ـ مثل نور الدين وصلاح الدين ـ كانت الأمة تطمئن اليهم وتمتلىء قلوب أفرادها حباً لهم وثقة بفضائلهم وتقواهم ، فكانت سيرتهم الطيبة في الأمة بلسماً لجراحها السياسية ، ومسكّناً لآلامها القومية والوطنية ، في ظروف حرجة كانت تنتابها بين حين وآخر : كالحروب الصليبية ، والغارات التترية وما الى ذلك

وأنت ترى مما تقدم أن الناطقين بالضاد كانوا يرمون في مطمحهم السياسي الى أمرين اثنين : حرية الفرد ، واستقلال الدولة ذات الحضارة العربية . وكلا الأمرين توارثوا جرثومتهما عن حياتهم الأولى في القبيلة . وكلاهما كانا متوفرين في الدول التي كانت العربية لسانها الرسميّ ، فكان الشعب لا يشعر بشيء من التغيير في حياته السياسية غير الأصل الذي ينتمي اليه الحاكم الأعجمي ، وكثيراً ما ينسى الشعب ذلك اذا نظر الى تأدُّب حاكمه بالأدب العربي ، وممالأته لسلسلة

الحضارة الاسلامية، ومدافعته الاغيارَ عن البيضة ؛ ان استقرار حال الدولة في هذه الأمور أو أكثرها مدة ملوك الأعاجم على ما كانت عليه الحال زمن الدولة العربية لماجعل الناطقين بالضاد في غير ما وجلٍ على مطمحهم القومي القائم على حرية الفرد واستقلال الدولة . واننا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان دولة آل عثمان نفسها التي اتخذت لغة الترك رسمية في الدولة الاسلامية من دون لغة القرآن لم تتمسك بذلك الا في الانضول والقسطنطينية والبلاد الواقعة في غربها ، وأما في بلاد العرب فقد ظلت الاحكام بالعربية الى أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، ويوم أسست مدارسها الرسمية في ديار الشام من أقصى حلب شمالاً الى أقصى فلسطين جنوباً (سنة ١٢٩٦هـ) كانت لغة التعليم في هذه المدارس عربية ، ولا تزال الكتب المدرسية التي ألفت بالعربية لطلاب تلك المدارس موجودة معروفة . فلما عزمت الدولة نهائياً على صبغ البلاد العربية بالصبغة التركية المحضة كان ذلك اليوم بداية عهد غير حميد ، وقد شاهدنا عواقبه مشاهدة المعاصر لحوادث عصره فلا حاجة الى بسطها

﴿ نحن ولغتنا اليوم ﴾

قلتُ في صدر هذا المقال إن لغة امة من الامم هي المرآة التي تنطبع فيها صورتها الحقيقية . وما عليك إذا أردتَ أن تتأكد صحةَ هذه القضية ـ أو اذا صدَّقتها وأردتَ ان تعرف حقيقة الناطقين بالضاد من النظر في لغتهم باعتبار انها مرآتهم ـ إلاّ ان تقف تُجاه المعجم العربي وقفةَ مفكِّر معتبر

إن هذه الوقفة لتوحي الى صاحبها من المعاني ما يستحقُّ ان نُفرِدَ له مقالاً مستقلاً ، بل هو من الاهمية بالمنزلة التي تستحقُّ من علمائنا عناية أخرى غير تحبير المقالات

الشعوب العربية الحاضرة تشبه المعجم العربيّ من كل الوجوه : ففي معجمنا المادة الغزيرة الفياضة التي تحسدنا عليها أمم كثيرة ؛ ولكن هذه المادة تحتاج الى تنظيم علمي تتسلسل فيه مشتقات الكلمة الواحدة تسلسلاً تاريخياً ـ بقدر الامكان ـ يراعى فيه تقديم الاصول على ما تفرّع منها ؛ ثم ان هذه الاصول والفروع تحتاج الى تحديد دقيق يستعان فيه بما تفرّق في غير المعاجم من أقوال علماء اللغة ، وتحتاج بعد ذلك الى التخصيص الذي تقتضيه حاجة العصر ، يتولاه مجمع علمي مسموع الكلمة لا يتردد الكاتبون في النزول على حكمه ؛ وتحتاج أيضاً الى أن يكون مؤلفو المعاجم ذوى كفاءة تامة في اختيار مادة كل معجم بالترجيح الذي يقتضيه حجم المعجم : الأهمّ فالاهم ، لان من عيوب معاجمنا أن نجد في أحدها الكلمة الحوشية التي قد لا يحتاج اليها المطالع مرة في السنة وتهمل الكلمة التي تمس حاجة الناس الى مراجعتها في كل وقت

ان لغتنا مثل امتنا لغة استقلالية ربما كانت أغنى من كل لغة اخرى عن الاحتياج الى غيرها ، ولكنها مع غنائها هذا العجيب قد خذلها علماؤها اليوم فلم يكوّنوا لانفسهم مجمعا جدّياً يكون المرجعَ الاعلى لامثاله في كل قطر عربي ، ويكون فيه العلماء الاخصائيون الذين بنوا علمهم على الاسس المتينة التي وضعها لنا أئمة هذه اللغة من عهد الخليل وسيبويه الى يومنا هذا

فاللغة العربية ـ كالقومية العربية ـ أصيلة وغنية وقوية بطبعها ، ومصابة بالتشتت والاهمال والفوضى والتخاذل في حالتها الراهنة ؛ فهل لها من رجالها الابناء البررة ، الذين يسلكون للاصلاح طريقه ، ويدخلون اليه من بابه ؟

أظن انه قد آن الأوان للنهوض من نومة طال علينا ليلها ، والله الهادي

الشفق

وعلاقته ببعض أوقات الصلاة

الفجر والشفق مشهدان من مشاهد الطبيعة في الملكوت طالما ابتهج بنو آدم عراقيتهما ، وما برح عالمها مصدرا من مصادر الالهام لقلوب الشعراء وأهل البصيرة . وهما فوق ذلك — ظاهرتان من الظواهر السماوية التي يهم قراءنا تحقيقها ، لاهميتهما في ذاتهما ، ولعلاقتهما بالشرع الاسلامي في تعيين وقت فريضتي الصبح والعشاء ووقت الامساك في رمضان

وقد التمست (الزهراء) من حضرة صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكري أن يتحف قراءها بتحقيق هذا البحث من الوجهة الفلكية مع المقارنة بالنصوص المأثورة عن علماء الفقه الاسلامي ، فتفضل بالمقال التالي :

الشفق ظاهرة سماوية سببها انكسار أشعة الشمس وانعكاس ضوئها عن طبقات الجو المحيط بالكرة الأرضية . وهو الحد الفاصل بين ضوء النهار إذا تجلى وظلمة الليل إذا يغشى

والشفق شفقان : شفق شروق وشفق غروب . فشفق الشروق ذلك الخيط الأبيض الذي يعترض في الفضاء عند ما تكون الشمس تحت دائرة الأفق وقبل أن تشرق ، ويأخذ هذا الخيط بالانتشار في طبقات الجو كلما اقتربت من الأفق الشرقي حتى يتم طلوعها فينجلي النهار . وأما شفق الغروب فهو ذلك الضوء الأحمر الذي ينتشر في الفضاء على الأفق الغربي عند ما تحتجب الشمس تحت دائرته ثم يأخذ في التلاشي شيئاً فشيئاً كلما انحطت حتى إذا بلغ انحطاطها نهايته وتلاشى تماماً يسود الظلام ويسدل الليل أستاره

والشفق إما عرفي وإما فلكي : فالعرفي يبتدئ من غروب الشمس الى الوقت الذي ترى فيه النجوم من القدر الأول بالعين المجردة حيث تكون الشمس تحت

دائرة الأفق الغربى بست درجات . والفلكى يمتد زمنه إلى أن يبلغ انحطاط الشمس تحت دائرة الأفق الغربى تسع عشرة درجة على رأى علماء المسلمين من أهل الرصد والميقات وثمانى عشرة درجة فى قول علماء الرصد من أهل الغرب

ومدة كل من الشفقين ليست واحدة ويتراوح الفرق بينهما من ٢° إلى ٤° لأن شفق الشروق يدوم زمناً أطول من شفق الغروب بقدر الفرق بينهما

وميل الشمس له تأثير كبير فى طول مدة الشفق وقصرها . فانه كلما كان ميلها أقل ـ أى كلما بعدت فى حركتها السنوية عن أحد المدارين واقتربت إلى خط الاستواء ـ قصرت مدة الشفق ، وبالعكس كلما بعدت عن خط الاستواء واقتربت من أحد المدارين أعنى زاد ميلها تطول مدته . وتختلف أيضاً مدة الشفق باختلاف عروض البلدان ومواقعها من سطح الأرض : فالبلاد ذات العروض الكبيرة أى البعيدة عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً تطول فيها مدة الشفق بينما غيرها من البلدان القريبة من خط الاستواء شمالاً أو جنوباً أى ذات العروض الصغيرة تقصر فيها مدته . وتتناهى مدة الشفق فى القصر فى البلاد الواقعة على خط الاستواء تماماً حيث لا تزيد عن ١٦° أى ساعة واحدة وأربع دقائق زمنية . وهناك عوامل أخرى ذات تأثير فى حالة الشفق ومدته وان كانت تجىء فى الدرجة الثانية إلا انها على كل حال لها أثرها : فمنها حالة الجو من الصفاء والاكفهرار ورطوبة الهواء وجفافه وظهور القمر فى التربيع الأول والأخير أعنى فى أوائل الشهر القمرى وأواخره

وقد استكشف العلامة لامبير الفلكى الشهير خطاً أسود يتولد فى الأفق الشرقى بعد غروب الشمس وان الشمس كلما انحطت تحت الأفق الغربى يصعد ذلك الخط من الشرق الى جهة سمت الرأس وتتسع منطقة الظلام الواقعة بين الخط المذكور والأفق الشرقى فتغطى وجه السماء وحينئذ يغيب الشفق . ولعل هذا الخط هو الذى أشير اليه فى الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم : إذا أدبر

النهار من ههنا (وأشار الى الغرب) وأقبل الليل من ههنا (وأشار الى الشرق) فقد أفطر الصائم

إن ظهور الخط الأسود هذا الذى استكشفه العلامة لامبير فى الأفق الشرقى بعد الغروب يستلزم ظهور خط أبيض وقت السحر ـ حين تقرب الشمس من الأفق فتكون على (١٨° أو ١٩°) ثمانى عشرة درجة أو تسع عشرة درجة ـ يطرد الظلام إلى سمت الرأس ويبعده الى الأفق الغربى . وزمان ظهور هذا الخط الأبيض انما هو وقت إمساك الصائمين ولعله المراد من الخط الأبيض المذكور فى قوله تعالى « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر »

ليس لنا بعد أن تكلمنا طويلا ملخصين صفوة ما قيل عن الشفق كظاهرة فلكية إلا أن نذكر بعض أقوال أهل الميقات والرصد فى هذه الظاهرة لعلاقتها المهمة فى تعيين الأوقات ذات الصلة ببعض الفروض الشرعية كصلاة الصبح والعشاء وإمساك الصائم . وقبل أن نأتى على ذكر ذلك نتقدم بخلاصة من أقوال الفقهاء توضح للقارىء مذاهبهم المختلفة فى هذا الصدد :

وقت الصبح

اتفق الفقهاء على ان أول وقت الصبح طلوع الفجر الصادق وآخره طلوع الشمس إلا ماروى عن ابن القاسم وعن بعض أصحاب الشافعى من أن آخر وقتها الإسفار . واختلفوا فى وقتها المختار فذهب الكوفيون وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأكثر العراقيين إلى أن الاسفار لها أفضل . وذهب مالك والشافعى وأصحابه وأحمد بن حنبل وأبو ثور وداود إلى أن التغليس لها أفضل

وقت العشاء

اختلف العلماء فى وقت العشاء الآخرة فى موضعين : أحدهما فى أوله والثانى

فى آخره . أما الاول فذهب مالك والشافعى وجماعة إلى أنه مغيب الحمرة . وذهب أبو حنيفة إلى أنه مغيب البياض الذى يكون بعد الحمرة . وسبب اختلافهم فى هذه المسألة اشتراك اسم الشفق فى لسان العرب فانه كما ان الفجر فى لسانهم فجران كذلك الشفق شفقان : أحمر وأبيض . ومغيب الشفق الأبيض يلزم أن يكون بعده فى أول الليل : إما بعد الفجر المستدق من آخر الليل أعنى الفجر الكاذب ، وإما بعد الفجر الابيض المستطير . فالطوالع إذاً أربعة : الفجر الكاذب والفجر الصادق والأحمر والشمس

ولا خلاف بينهم انه قد ثبت فى حديث بريدة وحديث امامة جبريل انه صلى العشاء فى اليوم الأول حين غاب الشفق . وقد رجح الجمهور مذهبهم بما ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العشاء عند مغيب القمر فى الليلة الثانية ورجح أبو حنيفة مذهبه بما ورد فى تأخير العشاء واستحباب تأخيره وقوله : لولا أن أشق على أمتى لأخرت هذه الصلاة إلى نصف الليل . وأما آخر وقتها فاختلفوا فيه على ثلاثة أقوال : قول انه ثلث الليل ، وقول انه نصف الليل ، وقول انه إلى طلوع الفجر . وبالأول — أعنى ثلث الليل — قال الشافعى وأبو حنيفة وهو المشهور من مذهب مالك . وروى عن مالك القول الثانى أعنى نصف الليل . أما الثالث فقول داود

وقت الامساك

اتفق الأئمة على ان آخر زمن الامساك هو غيبوبة الشمس لقوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل » واختلفوا فى أوله فقال الجمهور : هو طلوع الفجر الثانى المستطير الأبيض لثبوت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنى حده بالمستطير ولظاهر قوله تعالى : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض . . . الآية »

وشذت فرقة فقالوا هو الفجر الأحمر الذى يكون بعد الأبيض وهو نظير الشفق الأحمر . وهذا القول روى عن حذيفة وابن مسعود

هذه خلاصة من أقوال أئمة الشريعة الاسلامية ملخصة من كتبهم دون التعرض إلى ذكر أسباب اختلافهم التى لا يتسع لها هذا المقام على ان أغلبها يرجع الى تعدد الآثار واختلافها فى السند والرواية . ونريد الآن أن نُتبع ذلك ـ كما وعدنا آنفاً ـ بأقوال أهل الميقات وما قرروه فى تعيين زمن هذه الأوقات الشرعية :

قال بعض المتقدمين من علماء الميقات والرصد : يغيب الشفق متى كانت الشمس تحت الأفق الغربى بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة . ويبتدىء الفجر حينما تكون الشمس تحت الأفق الشرقى بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة أيضاً

وقال أبو الحسن علي المراكشى ومن تابعه من المتأخرين : يغيب الشفق متى كانت الشمس تحت الافق الغربى بقدر ١٦° ست عشرة درجة . ويبتدىء الفجر حينما تكون الشمس تحت الأفق الشرقى بقدر ٢٠° عشرين درجة

وقال علاء الدين الشهير بابن الشاطر وغيره من أئمة الرصد والهيئة كنصير الدين الطوسى وأبى الريحان البيرونى : ان وقت أكثر اللمان (الإسفار) يكون عند ما تكون الشمس تحت الأفق بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة . ووقت أقل اللمان (الغلس) يكون عند ما تكون الشمس على ٢٠° عشرين درجة تحت دائرة الافق على ان ذلك يختلف باختلاف عرض المكان وصفاء الهواء ووجود القمر وعدم ظهوره

وقال العلامة الشيخ شمس الدين بن المتروبى وابن الطاهر : يكون مغيب الشفق فى ١٨° ثمانى عشرة درجة وظهور الفجر فى ١٩° تسع عشرة درجة

يتبين مما تقدم أن الخلاف بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الميقات كبير يتراوح بين ١٦° الى ٢٠° وهذا الفرق لا يقل حسب تقدير الزمن عن ست عشرة دقيقة زمانية أى أربع درجات قوسية وهو كاف لفوات وقت المغرب أو وقت الفجر كما لايخفى فضلا عن وقت الامساك . ولقد ذهب بعض المتقدمين الى القول بالتساوى فى ظهور الشفق وغيابه سواء كان شفقَ شروق أوشفق غروب وهذا لايسلم به كثير من المتأخرين كابن الشاطر ونصير الدين الطوسى وأبى الريحان البيرونى وغيرهم . وإذا كان من بين أقوال من سبق تلخيص أقوالهم من العلماء المتأخرين ماهو أقرب إلى ما أجمع عليه علماء الميقات وإجماعهم ولا ريب لا يمكن أن يعدوَ الصوابَ فهو قول العلامة المحقق الشيخ شمس الدين بن العتروبى لأنه أقرب الأقوال الى الرأى الذى أقره أجلة علماء الرصد والميقات وهو : ان الشمس اذا انحطت عن أفق المغرب ١٧° سبع عشرة درجة غاب الشفق . وإذا صار بينها وبين أفق المشرق ١٩° تسع عشرة درجة طلع الفجر وانقضى الليل . وان وقت الامساك هو عند ما تصل الشمس تحت دائرة الأفق الشرقى الى ٣٠ َ ٢١° إحدى وعشرين درجة وثلاثين دقيقة ولما كان الفجر يبتدىء فى ١٩° تسع عشرة درجة يكون الامساك متقدماً عليه بدرجتين ونصف أعنى عشر دقائق زمانية

وخلاصة هذا الرأى أن صلاة الصبح تجب عند ما تكون الشمس تحت دائرة أفق الشرق بتسع عشرة درجة أعنى ساعة وست عشرة دقيقة زمانية قبل الشروق . والامساك يحل وقته عند ماتكون الشمس تحت الأفق الشرقى باحدى وعشرين درجة وثلاثين دقيقة أعنى ساعة واحدة وستة وعشرين دقيقة زمانية قبل الشروق . ويجب وقت العشاء الأول عند ما تكون الشمس تحت الأفق الغربى بسبع عشرة درجة أعنى ساعة واحدة وثمانى دقائق زمانية بعد الغروب

ويذهب أصحاب التقاويم الفلكية من علماء الميقات إلى أبعد من هـذا فى تقدير مدة الشفق التى لها صلة بالأوقات الشرعية فيتبعون من أجل ذلك الطرق الرياضية المألوفة فى تحرير الزمن وضبطه حسب اختلاف مطالع البلد التى يراعى فيها ميل الشمس وعرض البلد وطوله فيضعون الجداول الدقيقة للأوقات يوماً يوماً بالساعة والدقيقة والثانية .

هذا ما تهيأ لى أيها الصديق الكريم أن أجيب به على سؤالك لى عن « الشفق وعلاقته ببعض أوقات الصلاة » ولعلى أن أكون قد بلغت من الجواب مايقوم بالغاية من السؤال . وفوق كل ذى علم عليم

الخرنفش فى ٢٦ المحرم سنة ١٣٤٣

ع . ح . البكرى

﴿ ساعةُ ابنِ مُزَلِّق ﴾

حدثني شيخنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله قال :

كان ابن مُزَلِّق من نجار دمشق . وقد ورد عنه في رحلة لأحد أدباء المغاربة الى الشام في القرن الثامن الهجري انه صنع ساعة آليَّةً كبيرة كانت موجودة عند المدرسة الصابونية في دمشق بين جامع السنانية والباب الصغير . وكانت هذه الساعة أعجب ما وجد من نوعها يومئذ ، ولها اشارات خاصة عند الزوال وسائر الأوقات الخمسة

وهذه الرحلة مخطوطة كانت عند أحد المغاربة في دمشق وأعيرت للأمير طاهر الجزائري ففقدت ، ولا تُعرف منها نسخة في مكان آخر . وقد اطلع عليها شيخنا رحمه قبل أن تفقد

تُؤخذ الدنيا غلابا

— تحيةٌ للشبيبة الاسلامية البيروتية —

مثلت الشبيبة الاسلامية في بيروت رواية (جابر عثرات الكرام) التي ألفها الكاتب الناهض السيد رائف الخوري ، فألقى الشاعر الكبير خليل بك مطران ليلتئذ هذه القصيدة العصماء :

حيّ العزيمةَ والشبابا والفتيةَ النضرَ الصلابا
التاركينَ لغيرهم نزقَ الطفولةِ والدعابا
الباعلي بيروتَ — وهي الثغرُ — للعلياء بابا
الطالبين من المظانـ ـتِ الحقيقةَ والصوابا
البائعين زُهى القشورِ المشترين به لُبابا
آدابهم تأبى بغير التمّ فيها أن تعابا
أخلاقهم من جوهر صافٍ تنزّه أن يُشابا
نيّاتُهم نيّاتُ صِدْقٍ تأنفُ المجدَ الكِذابا
آراؤهم آراء أشياخٍ وان كانوا شبابا
مهما يلوا من منصب الأعمال يُوفُوه النصابا
والمتقنُ المجوادُ يُرضي اللهَ عنه والصحابا
أنظرْ الى تمثيلهم أفما ترى العجبَ العجابا
فاقوا به المتوقين وأدركوا منه الحبابا
أسمعتَ حُسنَ أدائهم إما سؤالاً أو جوابا
أشهدتَ من إيمائهم ما يجعل البُعدَ اقترابا
أشجتكَ رنّاتٌ بها نبَروا وقد فصلوا الخطابا

قد أبدعوا حتى أرَوْ نا (جابرَ العثرات) آبا
حيًّا كما لقيَ النعيم بعزّةٍ لقيَ العذابا
لا تستبينُ به سرورا إن نظرتَ ولا اكتئابا
ما أن يبالي حادثاً من حادثات الدهر نابا
يقضي الرغائب باذلاً فيها نفائسه الرّغابا
يُخفي مبرّته ويُجبَر أن يبوح بها فيابى
لا ينثني يوماً عن الاحسا ن لو ساء انقلابا
وتحوّلت يدُه الى أحشائه ظُفُراً ونابا

***

هنّ الخلائق قدَ يكنّ بطونَ خَبْتٍ أو هِضابا
والنفسُ حيث جعلتها فابلغْ اذا شئتَ السحابا
أو جارِ في أمن خشاشَ الأرض تنسحبُ انسحابا
كن جوهراً مما يمحّصُ باللظى أو كن تُراباً
ليسا سواء : منقضٍ هبواً ومنقضٌّ شهابا
البينُ محتومٌ وآلمَه اذا ما المرء هابا
والطبعُ ان روّضته ذللّتَ بالطبع الصعابا
لا تؤخذُ الدنيا اجتداء تؤخذُ الدنيا غِلابا
راجعْ ضميرك ما استطعـ تَ ولا تُهادنْه عِتابا
طوبى لمن لم يمضِ فى غَيٍّ تبيّنه فتابا
الوِزرُ مغفورٌ وقد صدقَ المفرّط إذ انابا

***

يامُنشئاً هذي الروايةَ إن رأيكَ قد أصابا
باللفظ والمعنى لقد سالتْ مواردُها عِذابا
حقاً أجدْتَ وأنتَ أحرَ ى من أجاد بأن تُثابا
وأفدتَ فالمحمولُ فيها طاب والموضوعُ طابا
يكفيكَ فضلاً أن عمَرْتَ بها من الذِكرى خرابا
ياحُسنَ ما يُروَى إذا أروى مَعيناً لا سَرابا
أذْكرتَ مجداً لم تزل تحدُو به السَّيرُ الركابا
وعظائماً للشرق قد أعنَتْ من الغرب الرِّقابا
خفضَ الجناحَ لها العِدى وعَلا الولاةُ بها جَنابا
مشَّت على الأسناد فى الروم المطهمةَ العرابا
وبمُسرجيها الفاتحينَ أضاقتِ الدنيا رحابا
آياتُ مجدٍ خلَّدتْ صحفُ الزمان لها كتابا

* * *

يا قومِيَ التاريخُ لا يألو الذين مضَوْا حسابا
ويظَلُّ قبلَ النشر يُوسِعُهم ثواباً أو عِقابا
من رآه بعثٌ فهذا البعثُ لم يدَعِ ارتيابا
فاذا عُنينا بالحياة خلا الطعامَ أو الشرابا
واذا تبينّا المسيرةَ لا طريقاً بل عُبابا
لاننس من حقّ الحِمى ما ليس يألوه ارتقابا
وبحَ امرئ رَجّاه مو طنُه لمحمدةٍ فخابا
أعْلى احتسابٍ بذلُ من لَبّى ولم يبغِ احتسابا

إنا — ومطلبُنا أقلُّ الحق لا نغلو طِلابا
ندعو الوفيَّ الى الجفا ظ ونُكْبِرُ التقصيرَ عابا
ونقول : كن نصلاً به تسطو الحميُّ لا قرابا
ونقول : دع فخراً بكا دُ صداه يوسِعُنا سبابا
آباؤنا كانوا . . وإنّا أشرفُ الأمم انتسابا
هل ذاك مُغنينا اذا لم نكملِ المجدَ اكتسابا

* * *

يا نخبةً ملكوا النجـ ـلةَ في فؤادي والحِبابا
ورأوا كرأيي أمثل الخطط التآلف والرِّبابا
لله فيكم من دعا للصالحات ومن أجابا

خليل مطران

﴿ العاميَّة والفُصحى ﴾

قال خليل بك مطران في مقدمة ترجمته لرواية عُطيل تأليف شَكِسْبِير :

« تالله لو ملكتُ العامية لقتلتها بلا أسف ، ولم أكن بقتلي إيّاها إلاّ منتقماً لمجد فوق كل مجد ، نَزَلتْ من هيكله الذهبيّ الخالص الرّنّان منزلةَ الرِّجلين الخزفيتين القذرتين ؛ فهو فوقهما مُتَداعٍ ، وبهما مشوَّه

« منتقماً لأمة كسَرت العاميةُ وحدتَها ، وكانت عليها أكبر معوانٍ للتصاريف التي مزّقتها في الشرق والغرب كلَّ ممزّق

« منتقماً للفصاحة نفسِها ؛ وأيُّ فصاحة في خُشارة لا تصيب فيها تبر الاصل الا وقد تلوّثت بذريرات لا تحصى من أوضار الرطانات بأنواعها »

المعزّ بن باديس والفاطميون

تتقدم (الزهراء) الى قرائها بهذا الفصل من محاضرة جليلة ألقاها باللغة الاوردية في جمعية الشرقيين بمدينة لاهور (الهند) حضرة العالم المحقق أبو البركات عبد العزيز الميمني الراجكوتي ـ الاستاذ بالكلية الشرقية في لاهور ـ وسيتلوه فصل آخر عن مملكة القيروان في عهد المعزّ بن باديس وحضارتها وعلائق المعز مع ابن رشيق . وكان القاء هذه المحاضرة بمناسبة اشتغال الاستاذ صاحبها بجمع أشعار ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين في كتاب سيصدر من مطبعتنا عما قريب باسم (النتف من اشعار ابن رشيق وابن شرف)

وقد اقترح منشيء (الزهراء) على حضرة الأستاذ صاحب المحاضرة أن ينقلها الى العربية بقلمه البليغ ، فتكرم حضرته بتلبية هذا الطلب تعميما لها بين الناطقين بالضاد

أوّليّة المُعزّ

لما فتح جوهر قائد المعزّ الفاطمي مصر في بدء القرن الرابع الهجريّ دعا مولاه المعزّ ليتمكن على سرير مصر والشام . ففكّر المعزّ فيمن يوليه بعده على إفريقية فلم ير له كفؤاً إلا بُلُكِينَ بن زِيْرِى بن مَنَّاد [1] الصِنْهاجيّ ، وصنهاجة كانوا أعوان الفاطميّين . فاستخلفه ودعاه أبا الفتوح سيفَ الدولة يوسفَ . ثم توالى منصور وبادِيْسُ الى أن تُوفّى هذا الأخير سنة ٤٠٦ هـ فَجْأَةً وهو في معسكره نائم بين أصحابه . فبُويع المعزّ ابنه وهو إذ ذاك [2] ابن ثمانية أعوام وقيل وستة أشهر وقيل بل ابن احدى عشرة سنةً

المُعِزّ بن بادِيْسَ

لم يُعرف له غير هذا الاسم . ولد سنة ٣٩٨ هـ بالمنصورية (صَبْرَةَ) وملك بعد وفاة أبيه بالمحمدية (المَسيلة) . فقام بأعباء الملك أحسن قيام . وأفرغه في قالب النظام . وأراح نفسه من المدّعين للمُلك من عشيرته الأدنَيْن . إلاّ أن طوائف البربر لم تُخَلِّه ينعم بالاً عادتَهم بأسلافه . فكانت تخرج عليه وتنتهز الفُرَصَ .

(١) كذا في صبح الاعشى ٥ : ١٢٤ وفي غيره ابن مناد

(٢) راجع ابن خلكان والكامل وابن خلدون

فثارت طوائف زَناتة سنة ٤١١ و٤١٥ و٤٢٠ و٤٢٧ و٤٢٨ و٤٢٩ هـ الى غيرها وآل حماد سنة ٤٣٢ هـ ولكن الحظّ كان قرين المعز فهزمهم وأخمد ثورتهم وكفّ من غَرْبهم فهابته الطوائف . وتزلّفت اليه بالتحائف . ولم يبق بأمّهات بلاد إفريقيّة من يساجله فى الرئاسة . قال ابن خَلْدُون (٦ : ١٥٩) :

« وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب فى جميعها كما هو مذكور »

وكان [1] رقيقاً رفيقاً . سَمْحاً جواداً محبّاً للعلم وحامِليه . متجنّباً لسفك الدماء . حليماً حسن الصحبة والعشرة . ليّن الجانب للأوْدّاء . خَشِنَه للأعداء . ملك من بَرقة الى فاس وسكّن الثُوّار بإيناس منه وإبساس . وكان يخضع لأحكام الشرع كما يؤخذ من عدّة تراجم فى معالم الايمان (٣ : ١٧٦ و٢٠٩) ولم يكن من الفنون اللطيفة خِلواً وله شعر وإن لم نَقِفْ عليه (الوفيات ٢ : ١٠٥)

ونقل صاحب البدائع من أبكار الأفكار لابن شرف أنه اقترح على شاعرَىْ حضرته أن يصفا شَعراً لطيفاً على أسْوُق بعض نسائه فكان مما قاله ابن رشيق :

يعيبون بلقيسيّةً أن رأَوا بها كما قد رأى من تلك من نَصَب الصَرْحا

فانتقد المعز عليه بقوله « أوجدتَ لخصمها حُجّةً بأن بعض الناس عابَه » وهذا النقد الصائبُ دليل على ذهنه الثاقب

وكان المعزّ واسطةَ عِقْد آل زِيرى بل ملوكِ إفريقيّة وبيتَ قصيدهم

قال ابن خَلْدون (٦ : ١٥٨) :

« كان أضخَم مَلِك عُرف للبربر بافريقيّة وأترفَه وأبذخَه »

واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء مالم يجتمع إلاّ بباب الصاحب اسماعيلَ

(١) ابن خلدون ٦ : ١٥٨ والكامل ١٠ : ٦ والوفيات ٢ : ١٠٥

ابن عَبّاد وكانوا يُنيفون على مائة شاعر على ما زعم صاحب البساط (ص ٥١) وذكر أكثرهم ابنُ رشيق فى (أنموذج الزمان فى شعراء قيروان) وسيمرّ بك سَرْد أسماء من عثرنا على ترجمته منهم

وهاك بعضَ أمثلة شهامته وبُعد صيته . قال ابن الأثير [١] :

وهب مرة مائة الف درهم للمستنصر الزناتى وكان عنده وقد جاءه هذا المال. فاستكثره فأمر به فأُفرغ بين يديه ثم وهبه له . فقيل له لِمَ أمرتَ بإخراجه من أوعيته . قال لئلا يقال لو رآه ماسمحتْ نفسه به

وقال ابن خلدون :

نقل ابن الرقيق من أحوالهم فى الولائم والهدايا والخبائز [٢] والأعطيات ما يشهد بذلك . مثل ماذكر أن عطية صندل [٣] عامل باعانة مائة حمل من المال. وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العودَ الهندى بمسامير الذهب . وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتى ثلثين حملاً من المال وثمانين تختاً . وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صَفاقُسَ كان خمسين الف قفيز

وقال أيضاً قبله بقليل :

ووصل زاوى بن زيرى (صاحب غرناطة) من الاندلس سنةعشروأربعمائة كما ذكرناه فى خبره فتلقّاه المعز أعظم لقاء وسلّم عليه راجلاً وفُرشت القصور لنُزُله وَوَصَلَه بأعظم الصلات وأرفعها

وقال ابن خلكان [٤] :

وكان الحاكم صاحب مصر قد لقّبه شرف الدولة وسير له تشريفاً وسِجلاً يتضمن اللقب المذكور وذلك فى ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة

---

(١) ١٠ : ٦ (٢) كذا ونسخة ابن خلدون (٦ : ١٥٨) مصحفة ولعل صوابه « الجنائز » (٣) كذا وانظر (٤) ٢ : ١٠٤ والبساط ٤٢

وتزلفت له الملوك بالهدايا والتُحَف ابتغاء مهادنته . فمن ذلك هدية أتت من مصر على ما قال ابن رشيق [١] أو من السودان على ما قال صاحب البساط [٢] أو هذه غير تلك وفيها زَرافةٌ وصفها ابن رشيق فى عمزيَّة (وهى فى النُتَف) . ووفود [٣] أرسلها ملك الروم سنة ٤٢٦ هـ معها هديةٌ خطيرة فقبلها بقصره فى صَبْرَةَ وردّها بما يناسب حالها وحاله . وفى الكامل [٤] أنه أرسل الى جزائر القسطنطينيَّة أسطولا وجهّزها فرجعت منصورةً غانمةً . الى غير ذلك من الأخبار ولم نتعرّض لها إذ لم يكن الإكثار من غرضنا فى الباب

غُلوّ الفاطميّين فى بَثّ دعوتهم

اعلم أن القاضى أسد بن الفرات فاتح صِقِلّيَة والامام سحنونا لمّا صنّفا الأسدية والمدوّنة كان المذهب الحنفى بعدُ ناشراً لواءه ومادًّا خباءه على تلك الأرجاء . إلا أن خطوته جعلت تتقهقر بعد تصنيفهما الى وراء ونباهته الى انزواء . ثم انّ الفاطميّين بثّوا دعوتهم ونشروا كلمتهم ولم يكتفوا بالجائز حتى جاوزوا الحد وارتكبوا كل فظيعة شنيعة . وأظهروا أن ليس غرضهم الا ردّ الامر الى أهل البيت والولاء لهم والتفانى فى اصطفائهم الا أنّهم أضمروا ما يباينه فجعلوا يخدعون العوامّ والسُذّج ويستخفّون بالشريعة وأحكامها وعلمائها وكبار رجالها ويسبّون الصحابة جهاراً ولا يخافون لومةَ لائم ولا نَهْيَ ناهٍ ويتصرّفون فى أوامر الشريعة ونواهيها فعلَ عزيز مقتدر ويُستهترون بالمعاصى ويؤذون علماء الدين وخيرة العالمين . ثم أعادوا أعمالهم الشنيعة بمصر والشام وأصرّوا على الآصار والآثام . إلا أن أهل هاتين المملكتين لم يكن عندهما بَلاءٌ ولا غَناء ولا مِراس ولا لقاء . فلم يصابوا فتيلةً ولا رُزِئوا شيئاً . ولكن أهل إفريقيّة والمغرب كانوا بعكسهم .

(١) العمدة ٢ : ٢٢٨ (٢) ٤٣ (٣) البساط ٤٤ (٤) ٩ : ٢٢٥

من النجدة والبأس وقوّة المِراس وشدّة الشكيمة . آنفين من الضيم والمضيمة - نقل الدباغ [١] فى سبب قتل عروس المؤذن المتعبّد الشهيد أنه كان يؤذّن فى مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون فشهد عليه بعض المشارقة [٢] أنه لم يقل فى أذانه « حيّ على خير العمل » فقطع لسانه [٣] وسُمل بين عينيه وطيف به القيروانَ ثم قتل بالمِرضاخ . وكذلك نقل [٤] أيضاً (وأنكر ابن ناجى وجوده فى المعالم) ما وقع فى عهد أبى المعزّ قال انهم بعد فتحهم مصر والشام « بعثوا دُعاتهم إلى إفريقية يدعون الناس الى مذهبهم الفاسد ويُجبرونهم عليه فلم يُجبهم أحد الى ذلك من أهل القيروان وأنه قدم مرّةً [٥] داعٍ لهم فى أيام باديس بن المنصور وأخذ الناسَ بالعُنف والغِلظة . وانهم ظفروا ببعض رُسل هذا الداعى فقتلوه اه . فهذا وأمثاله أثار العوامّ عليهم . وبغّضهم لهم . إذ لم يكونوا كهمَل النَعام . ولا بهيمة الأنعام . يسير بها الراعى العُبيدىّ حيث يشاء . ويسومهم خُطّة العَسف وسفك الدماء . فانتقموا منهم فى دولة المعزّ وأبيه وأصابوا الثأرَ المُنيمَ بل أسرفوا وما سَدّدوا ولا قاربوا فقتلوهم اشنع قتلة وفتكوا بهم فتكة البَرّاض ولم يُراعوا حدود الله ولا وقفوا دونها فقُتل بعضهم والجلى آخرون الى صقلّية

المُعزّ والمشارقة (الفاطميّون)

لم يكن فى المعزّ من التأليف والملاطفة والمداهنة والمتاركة ما كان فى أسلافه فكان يجمجم بذمّهم تارة ويصرّح أخرى ويتبرّأ منهم الى العوامّ وعلماء الدين وكانوا بحيث ذكرنا ينطوون منهم على دِمنة كامنة ودِخلةً مُزعجة فعدّوا كلّ هذا غُنما ووسيلة الى قلع غَرْسهم واستئصال شأفتهم . قال ابن الأثير [٦] مامعناه :

(١) معالم الايمان ٣ : ٢ (٢) كان أهل المغرب يدعون الفاطميين بالمشارقة لان عبيد الله الشيعى مؤسس دعوتهم أتاهم من المشرق (٣) وفى الاصل وعمل كذا ؟
(٤) المعالم ١ : ٢٤ (٥) وفى الاصل مدة (٦) ٩ : ١٢٢

لما اجتاز موكب المعز بالقيروان سنة ٤٠٧ هـ رأى دهماء الناس مجتمعين فسأل عن سبب اجتماعهم فقالوا للعن أبي بكر وعمر (رض) فأجابهم «رضي الله عنهما». فكأن ترضيته هذه كانت أمراً للعوام فضربوهم حيث وجدوا اهـ. وقال ابن خلدون [1] ما لفظه: «وكان المعزّ منحرفا عن مذاهب الرافضة ومنتحلا للسُّنَّة فأعلن بمذهبه لأوّل ولايته ولعن الرافضة ثم صار الى قتل من وجد منهم. وكتب به فرسُه ذاتَ يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر فسمعته العامّة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل وقُتل دُعاة الرافضة يومئذ اهـ. وقال ابن ناجي [2] ماملخّصه: ان المعزّ لما قدم القيروان بعد موت أبيه واستفتاح ولايته عام ٤٠٧ قتلت العامّةُ الرافضةَ أقبح قتل وحرّقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم وجرحوهم بالأرجل وكانت صَيحةً من الله سلّطها عليهم وخرج الأمر من القيروان الى المهدية وسائر بلادهم فقُتلوا حيث وُجدوا الى آخر ماسرده من أنواع القتل والمُثلة» ثم قال وماتقدم من قولنا «خرج الأمر من القيروان الى المهدية وسائر بلادهم» خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل البرزالي أن الوقت الذي قام عليهم فيه أهل القيروان قام كل شيخ على من في بلده كالشيخ مُحْرِز على أهل تُوْنِسَ من غير أن يكون اتفاق منهم على ذلك بل هي كرامة في حق جميعهم اهـ يريد أن قتل أهل كل بلدة من فيها من الشيعة في آن واحد لم يكن عن تواطؤٍ منهم على ذلك سابقٍ بل هو كشف. أقول وهكذا يقول العوامّ في ثورة الهند الشهيرة سنة ١٨٥٧ م وما أشدّ وَلَعَ المتأخرين بالمكاشفات والخوارق ومدّعي المتصوّفة فانّ سلفهم ـ والتاريخ شاهد على ما أقول ـ لم يكونوا كذلك ولا نبذوا الاسباب والعِلل الكونية نَبْذَ هؤلاء الغُواة. ولم يكونوا أقل منهم رعايةً للدين ولاخشيةً لله. وأهل المغرب أولعهم بالطلّسمات والعُوَذ والرُّقَى والشيوخ الكاذبين

(١) ٦ : ١٥٩ (٢) المعالم ٣ : ١٩٢

الناصبين هدانا الله واياهم الى سواء الصراط . وهذه بعض كرامات سردها ابن ناجى [١] فى ترجمة أبى يوسف الدهماني : إخباره بالمغيبات مراراً ، طيرانه فى الهواء ، إقامته مُقْعَداً ، دَوَران البيت ، أمره بطرح القمح فى البحر مع أنهم لمَّا فتَّشوا عنه وجدوه وافياً لم ينقص حَبَّةً ، جعل الماء حيتاناً ، جعل الرَّمْل ذَهَباً . الى غير ذلك من الهوسات ، والدعاوى الكاذبات . عصم الله عباده عن حبائل هؤلاء الاغمار القائدي المسلمين الى البوار

ومع هذا كله وصلته من الحاكم الفاطمى فى هذا العام الهدايا الثمينة . كأنه لو اكتفى بما فعل لم يَهِجْ كامن حقد الفاطميين ولم يُثِرْ دواعى الانتقام . والحقّ أن فتوح المعزّ المتوالية وانتصاراته المتواترة ثبّطت من عزائم أعدائه وكفَّت من غَرْبهم سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها فأخذوا يستعطفونه ويستميلونه ودلفوا له بالتحائف الخطيرة . فكان هذا من إحدى البواعث على انحراف طبعه وغريزته . ونبذه الفكر فى العواقب وراءه ظِهْرِيًّا كما سيأتى

قال ابن خلكان [٢] وفي سنة تسع [٣] قُطع اسمه (المستنصر) واسم آبائه من الحرمين الشريفين وذُكر اسم المقتدى خليفة بغداد . فكان هذا وأمثاله من الأمور داعياً له على أخذ الثأر منهم والاستبداد . فقطع الدعاء لهم وكان جارياً من أيام المهدىّ عبيد الله بافريقية سنة ٤٣٥ كما قال ابن الأثير ومؤرخو القيروان أو سنة ٤٤٠ هـ كما قال ابن خلدون (إلا أن إحدى سنى ابن خلكان أعنى سنة ٤٤٣ لا أجد له وجهاً) وأحرق بتود المستنصر ومحا اسمه من الطُّرَر والسِكَّة ودعا للقائم ابن القادر ووافاه خِطابه وكتابُ عهدِه صحبةَ داعيته أبى الفضل الدارمىّ الوزير وسيأتى ذكره مع خِلَع سنيَّة وجوائز بهيَّة وسيف مرصَّع وعدّة أعلام . وهذه صورة التولية [٤] :

(١) ٣ : ٢٦٥ — ٢٧٠ (٢) ٢ : ١٠٣ (٣) وفى العبارة ما يوهم بأن يكون وقوع هذا سنة ٤١٩ هـ راجع ابن خلكان (٤) الكامل ٩ : ٢١٧

من عبد الله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين الى الملك الأوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله مؤيّد سنّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبي تميم المعز بن باديس بن منصور وَلِيّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين . . الخ

والعجب من تخليط ابن الأثير حيث قال في موضع آخر [1] ان ذلك جرى سنه ٤٤٠ هـ فانظر فبأيّ قوليه نأخذ وعلى أيّهما نعوّل . وان كان هذا الأخير له شاهدٌ في المعالم [2] ولفظه في ترجمة محمد بن جعفر الكوفي قاضي صَبْرَةَ « كان فصيحاً لَسِناً سُنّياً مبايناً لأهل البدع شديداً عليهم ولمّا أمر المعزّ بن باديس بلعنة عبيد الله في الخُطَب وذلك في يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة خطب هذا القاضي فقال بعد ذكر ماجرت العادة به في خُطبة الفطر: اللهم والعن الفَسَقة الكُفّار المُرائين الفُجّار أعداء الدين وأنصار الشياطين المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك المتبعين غير سبيلك والمبدّلين لكتابك الخ . فأمر السلطان خطيب جامع القيروان أن يفعل مثل ذلك على المنبر في الجُمَع في كل خطبة » اهـ . أقول ولم يصرّح باسم عبيد الله أو خلفائه فليُعْلَمْ

وجملة القول أن الحاكم المتوِدّد له كان قد تُوُفّي وخَلَفَه المستنصر وكان أبيّ الضيم والهَضْم فتمعّر وجهه وامتضّ وتحرّق وكتب الى المعزّ يُوْعِده فأجابه المعز بمثل كتابه وأظهر انكم لم تنالوا ما نلتم من الملك الا بمونة آبائي. وان كانت جملته هذه لم تُجانب الصوابَ لأن عبيد الله كان أتى من المشرق وكان أنصاره قبائل صِنْهاجة من البربر وهم إخوان المعزّ وعشيرته إلا أنها لم تخرج عن قلب عَقول ولسان شكور ونظر في عواقب الأمور. والذي زاد ضِغْناً على إبّاله والطينَ بَلّةً أنه

(١) الكامل ٩ : ٢٣٠ (٢) ٣ : ٢٤٣

نام نومةَ عَبُود ولم يجهّز العُدّة أو العديد ولا استمالهم أو استقالهم . وأما المستنصر فانه استوزر الحسن البازوري وكان جاهلاً غمراً ، يجهل من المعزّ بين ضلوعه غمْراً . وكان المعزّ يخاطب الوزراء الماضين « بعبده » فكتب اليه « صنيعته » فاغتاظ واستاء ودبّر له مكايدَ الأسواء وقوّى عزيمة المستنصر على الايقاع به والزحف اليه على ما سيأتي

ضعف قوة المعزّ

قال النويري في نهاية الأرب [1] « سار جماعة من أهل صقلية الى المعز بن باديس وأعلموه بما حلّ بهم وقالوا نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلّمنا الجزيرة الى الروم وذلك في سنة سبع وعشرين وأربعمائة . فوجّه المعز ولده عبد الله الى صقلية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومنهم رجال فسار الى الجزيرة ووقعت بينه وبين الاكحل (أحمد صاحب صقلية) حروب وحاصره في قصره بالخالصة ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الاكحل فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدراً . ثم رجع بعض الصقليّين عن (كذا) بعض وندموا على إدخال عبد الله الى الجزيرة واجتمعوا على حربه وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتل منهم نحو ثلثمائة رجل ورجعوا في المراكب الى إفريقية اه . وقال بعده بنحو صفحتين بعد ما ذكر تغلب رجّار الإفرنجيّ صاحب مالطة على عامّة مدائن صقلية » ففارق الجزيرةَ كثير من العلماء والصالحين وسار جماعة من أهل صقلية الى المعز بن باديس وذكروا له ما الناسُ فيه بالجزيرة من الخُلْف وغلبة الفرنج على كثير منها فعمّر أسطولاً كثيراً [2] (كذا ولعله كبيراً) وشحنه بالرجال والعُدَد وكان الزمان شتاء فساروا الى قوصرة فهاج البحر عليهم فغرق أكثرهم ولم ينجُ الاّ القليل وكان

(١) مجموعة أمارى في تواريخ صقلية ص ٤٤٥

(٢) كان فيها اربع مائة مركب على قول ابن الاثير

ذهاب هذا الاسطول مما أضعف المعزّ بن باديس وقوّى العربَ عليه حتى أخذوا البلاد منه اه » . وإنى لأعجب من ابن الأثير كيف خلط بين الحادثتين قال فى حوادث سنة ٤١٦ [1] أن المعزّ جهّز اسطولا الى صقليّة لاستنقاذها من أيدى الروم ولكنها غرِقت بما فيها قرب جزيرة قوصرة بعد كيت وذيت . ثم قال بعده بكثير [2] وأخذ فى بَدْء تاريخ مسلمى صقليّة تحت حوادث سنة ٤٨٤ هـ أن ابن الحواس (أو الجواس) صاحب صقلية لما هزم عساكر ابن الثمنة (الخارج عليه) سار هذا الى رجّار يستنجده ليملكه عليها فسار فى رجب ٤٤٤ بجنوده وقبض على أكثر البلاد وهزم ابن الحواس وسار جماعة من أهل صقليّة الى المعزّ بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخُلف وغلبة الفرنج الى آخر قول ابن فضل الله حتى أخذوا البلاد منه حرفاً حرفاً . وهل هذا إلا تناقض شنيع وتخليط قبيح ولقد صدق من قال المِكثار مِهذار . فكان هذا وأمثاله على ما صرّح به العُمَرىُّ وابن الأثير مما أضعف قوى المعزّ وجرّأ عَرَبَ مصر وشُذّاذ الخوارج عليه وهدم صَرْحَ مجده الرفيع ، وعِزّه المنيع . فصار خرابُ القيروان مُمْدِياً الى سائر إفريقيّة وصقليّة بل إلى المغرب بأسره

من وصايا الكندي الفيلسوف :

العاقل يظن أن فوق علمه علماً ، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة . والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك

ومن شعره :

وعند مليكك فابغ العلوّ ... وبالوحدة اليوم فاستأنسِ
وان الغنى في قلوب الرجال ... وان التعزز بالأنفس
وكائن ترى من أخي عسرة ... غني وذي ثروة مفلس

(١) الكامل ٩ : ١٤٥ (٢) ١٠ : ٨١

اللغة العربية

والمتسرعون في الانتقاد

كتب العلامة الجليل الاستاذ جبرضومط ـ استاذ اللغة العربية في الجامعة الاميركية ببيروت وصاحب المصنفات الممتعة ـ كتاباً الى مجلة الحرية في بغداد قال فيه :

« . . . أصبح كل من ينظم بيتاً من الشعر ، أو يكتب مقالةً في الأدب والعلم ، يتصدَّى لانتقاد اللغة ، وليس له من رأس مال إلاّ : وَرَدَ ، ولم يَرِد . .

انتقاد اللغة يُعنَى به انتقادُ العقل البشريّ — لا عقل زيد أو عمرو — في الماضي والحال والمستقبل . والذي أراه أهلاً لأن ينتقد اللغة ، التي لسوء لحظها كثر نقادها الآن ، ينبغي ان يكون قد تخصَّص لدرس كيف يبين العقل عن نفسه في اللغة ، وينبغي أن يكون أقلَّ ما عرفه وأتقنه السنين الطوال معرفةُ الحقيقة وأنواع المجاز والاستعارات والكنايات والبديع المعنوي ، وما هي علاقتُه — أي البديع المعنوي — بأنواع المجاز والاستعارات ، وان يعرف الفرق بين رأي سيبويهِ ويونس ، وما بين رأيهما وما يرويانه عن العرب

ان من يتصدَّى لنقد اللغة ينبغي ان يكون قد أتقن علم الفيلولوجيا [1] Phylology فضلاً عن علمي الصرف والنحو ، لا كما زعم فيهما البصريون ، بل ينبغي أن يكون واقفا على ما زعمه الكوفيون أيضا . وفوق ذلك أن يكون يعلم بداهة أو تعلُّماً ، أن الضوابط والقواعد التي يضعها الصرفيون والنحاة ينبغي ان تبنى على اللغة ، وان اللغة اكبر وأعظم من ان تبنى على ضوابط وقواعد وضعها فلان أوفلان ممن وصلتنا تعليلاتهم التي بدأنا الآن نشعر بسخافتها شيئا »

---

(١) فقه اللغة

استدراك .

على مقال « التعقية عند العرب »

ورد في مقال « التعقية » المنشور في العدد الماضي من (الزهراء) بيتٌ نقلتُه من تاج العروس للزبيدي (مادة عقّ) منسوباً للاشعر الجُعفي . وقد وقعتُ من ذلك النقل في خطأ وفي احتمال خطأ . أما الخطأ المقطوع به فهو أن اسم الشاعر ورد في ذلك الموضع من التاج « الاشعر » بالشين المعجمة وصوابه « الاسْعَر » بالسين المهملة ، وقد ورد صحيحاً في موضع آخر من التاج (مادة سعر) قال : والأسعر لقب مَرثد بن أبي حُمران الجُعفي الشاعر ، سمي بذلك لقوله :

فلا تدعُني الاقوامُ من آل مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأنقب

وكذلك ورد هـذا الاسم في كتب الأئمة ، ومنهم الاصمعي في مختاراته (الاصمعيات) المطبوعة في ليبسيغ عام ١٩٠٢ م

واحتمال الخطأ وارد على البيت الذي نقلناه عن التاج هكذا :

عقوا بسهم ثم قالوا : صالحوا ياليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

فانه من مقصورة الاسعر التي هي فاتحه الاصمعيات وروايته فيها :

مسحوا لحاهم ثم قالوا ثم قالوا : سالموا ياليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

وأنت ترى صدر البيت على ماجاء في التاج مخالفاً لما في الاصمعيات ، ولا أستطيع أن أجزم بالصحة لاحدى الروايتين دون الاخرى الا اذا وقفت على ما يقضي بالترجيح

الجمهورية التركية ـ وحضارة الاسلام

عقد المعلمون والمعلمات في تركيا مؤتمراً لهم أواخر المحرم في مدينة أنقرة ، فألقى عليهم واصف بك وزير المعارف العمومية خطبة مطولة دامت اكثر من ساعة بين لهم فيها سياسة المعارف التي ينبغي للآخذين على عاتقهم مهمة تكوين النشء التركي الجديد أن يتبعوها في التربية والتعليم . ونحن نكتفي بالاشارة الى الغايات التي رمى اليها وزير المعارف التركية في خطبته لأن المجال في (الزهراء) لا يتسع لايراد نصها ، والتعليق عليها . ومثل خطبة واصف بك لا يضيرها التلخيص ، ولا يخل بما تضمنه من المقاصد ، لانها صريحة في بابها

قال وزير المعارف في الجمهورية التركية : ان الترك انصرفوا حتى الآن عن مشاعرهم القومية ، التي كان يجب أن تكون روحَ الثقافة عندهم ، وحياةَ شخصيتهم الاجتماعية ، واستُعبِدوا لثقافة العرب وحضارتهم

ولم يكتم الوزير غرضه من « ثقافة العرب وحضارتهم » فقال : ان الدين الاسلامي كان عقبةً في سبيل اندفاعنا نحو الحياة الجديدة ، وقد استخفَّ الترك بقوميتهم وألحقوا بها الاهانة والتحقير منذ أذعنوا للتهذيب العربي الأجنبي عنهم

قال : ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها نشبت حرب أخرى بين القومية التركية وثقافة العرب وحضارتهم ، فقوّض الترك ما في ديارهم من معالم ثقافة العرب ، وبذلك ساروا شوطاً ابتدأوه لهدم المدنية الاسلامية التي استعبدت وطنهم وحالت بينهم وبين ترقيته . وما على المعلمين والمعلمات في الجمهورية التركية الا أن يواصلوا السير في هذا الطريق الجديد لتعليم النشء الجديد ، بانين سياسة المعارف على هذا الأساس

* * *

هذا هو صوت الدولة الرسمي الذي صدر في تركيا من رئيس الى مرءوسين . وضعت الأمة التركية بين أيديهم رجال المستقبل ليكوّنوهم بالشكل الذي يريدونه . وقد سمعنا من القسطنطينية صوتين ـ غير رسميين ـ يعارضان خطة وزير المعارف .

الانقروية : أحدهما من مجلة دينية وهي (سبيل الرشاد) ، والثاني من جريدة (توحيد أفكار) التي لا تزال ترى أن سياسة العداء للاسلام مضرة بالترك

قالت (توحيد افكار) : ان الاساس الذي وضعه وزير المعارف لا يمكن أن يقام عليه بناء سياسة المعارف ولا أي شيء آخر . وليس صواباً قول الوزير ان الترك كانوا مستعبَدين لثقافة العرب وحضارتهم ، فالترك لم يُرغموا على انتحال الاسلام ارغاماً بحدّ السيف كما أرغم عليه العرب (١) والفُرس والبربر ، بل دانوا به لأنهم وجدوه ملائماً لطبعهم القومي وموافقاً لتقاليدهم التاريخية ، فهم لم يضحّوا بتقاليدهم وسجاياهم في سبيل الاسلام

وأشارت مجلة (سبيل الرشاد) الى ملائمة الاسلام لطباع الترك وقالت : ان الترك بطبعهم من أنصار الوحدة ، وأوضاعُهم قائمة على أساس الولاية العامة ، ولما وجدوا في الاسلام مثل هذه القواعد مالوا اليه . وهم بفطرتهم جنود ، ورأوا الجهاد من أركان الاسلام فدخلوا فيه . والعرب لما اهتدوا بالاسلام الى فكرة الدولة والى قاعدة الوحدة استطاعوا أن يصلوا بالاسلام الى أعماق فارس وصحاري افريقية وحزون الاندلس . ولما نسي العرب ذلك بما عادوا اليه من عصبية القبائل ، وكان الفُرس يستعملون أقصى ما فيهم من قوى الذهاء لخنق الاسلام بالاساطير الفارسية تجديداً لسلطان الكسروية الساسانية المنقرضة ، كما كانت العقلية الاثورية والبيزنطية والمصرية ينخر سوسها في فطرة الاسلام ؛ يومئذ أُريدَ في العرب نورُ تلك السجايا التي أيقظها الاسلام الحقيقي . وان السجايا التي أيقظها الاسلام في العرب ايقظ مثلها في الترك فهذبهم بمبادئه العلوية الصافية . ولا ريب

(١) ان الذين دعوا العرب الى الاسلام هم العرب أنفسهم ، فكان منهم الهداة ومنهم المهديون . ولم يكن السيف أداة الدعوة في الاسلام بل كان يحمي الدعوة من الوافدين في طريقها المعتدين على حريتها ، وقد كان ذلك في بلاد الترك فيما وراء النهر كما كان في الاقطار الأخرى (الزهراء)

أن ما ظهر في الترك من فضائل انما هو أثر من آثار الاسلام . فسقوط الترك وانحلالهم لم يكن ناشئاً عن دخولهم في الاسلام بل عن ابتعادهم عنه

وقالت (توحيد أفكار) : ان ثقافة العرب وحضارتهم قد حفظت للترك قوميتهم ، بدليل أن الأمم التي ترجع الى أصل تركي لم يبق منها محتفظاً بقوميته الا الشعوب التي دخلت في الاسلام ، أما الشعوب التركية الأخرى فقد ذابت في الأمم التي دخلت في دياناتها

قال كوبريلي زاده فؤاد بك في تاريخ تركيا (١ : ١٥) : ورد في الاحصاءات الروسية أن ٥٢ ر٨٩ في المائة من الترك في روسيا مسلمون و ٠٥/١٠ نصارى ارثوذكس وسائر الترك وثنيون من أهل المذهب الشاماني ، وهو دين الجاهلية التركية . وفي الانضول فئة من الترك انتحلت الارثوذكسية فانسلخت عن التركية بدعاية اليونان ، كما انسلخ عنها نصارى الترك ووثنيوهم في روسيا بدعاية الروس

ثم قالت (توحيد أفكار) : هذا من جهة الجنسية التركية مدة اتصالها بالاسلام ، وأما من جهة اللغة فان الترك كانوا ـ حتى في الوسط الذي يغلب فيه سلطان العربية ـ محافظين على لغتهم يتكلمون بها مع معرفتهم العربية والفارسية ، بل ان بعض الترك كان يفتخر بجهله هاتين اللغتين . ذلك بأن الاسلام جاء مخففاً من حدّة العصبية القومية فكان من دواعي البقاء للغة الترك وقوميتهم

قلتُ : ولو أنصف القوم لذكروا للعرب فضلهم على اللغة التركية بما سبقوا اليه غيرهم من وضع القواعد لها وتأليف الكتب في صرفها ونحوها . ولكن الذي نعلمه أن ذلك صعبٌ على نفوس كثيرين منهم ، حتى أن السلطان عبد الحميد أمر بجمع كتاب (الادراك الى لسان الاتراك) الذي ألّفه أبو حيان الاندلسي

بعد أن طبع هذا الكتاب في القسطنطينية مدة سلطنته لأن أحد غلاة الترك قال له ان وجود هذا الكتاب في الايدي معرّة علينا لدلالته على سبق العرب الى تدوين قواعد لغتنا ، فأمر بازالته من الوجود . ثم لما نالت طريقة المستشرقين في نشر الكتب القديمة الاعجابَ والاستحسان عند الترك عادوا في مدة الاتحاديين الى نشر مثل هذه الكتب ومنها كتاب (حلية الانسان وحلبة اللسان) للشريف جمال الدين احمد بن مهنا صاحب كتاب (عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب) . وكتاب حلية الانسان هذا من أجود ما ألفه العرب في لغة الفرس والترك والمغول

قالت (توحيد افكار) : ويذكر الوزير أن حرباً نشبت بعد الحرب العظمى بين الأمة التركية وثقافة العرب التي هي دين الاسلام . ونحن قد شهدنا الزمن الذي أشار اليه الوزير ولم يكن لنا علم بهذه الحرب ، والذي علمناه أن الحرب كانت قائمة بين ارادة الأمة التركية وبين مطامع السلطنة ، فتغلبت الاولى على الأخرى . وكان هذا القيام حقاً من حقوق الأمة فتمخّض عن الحكم الجمهوري

* * *

وبعد فهذه هي المرامي التي رمى اليها وزير المعارف الانقروية في مؤتمر علني عُقد في عاصمة الجمهورية ، مرشداً المعلمين والمعلمات — وكلاهما كانا من سامعي خطبته — الى سياسة التعليم التي يراد السير عليها في تلك الديار

وقد نُشرت خطبة الوزير في صحف أنقرة يوم القائها ، وطيّرت شركة برقيات الانضول — لسان حال الحكومة — خلاصتها الى أنحاء المملكة ، فأقرتها الحكومة بسكوتها عليها ، وقابلها الحزب الاسلامي بالمقالين اللذين أشرنا إليهما . وان الخطبة والمقالين مرآة صادقة لموقف تركيا اليوم تجاه العرب والاسلام

ذكرى صديق راحل

إني مخبركم عن صاحب لي ملأتُ منه يدي ، وطويتُ على حُبه نفسي ، وجعلته ضِنى من بين صحبي ، « وكان رأس ما أكبَرَه في عيني صِغَرُ الدنيا في عينه »

كان بصيرا بورد الأمور وصدرها : يعرف من مَطالع كل أمر ما يكون مَقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البيّنة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيرُه بالعيان

كان أكتمَ ما يكون للسرّ اذا باحتِ الألسنةُ من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات من مكنونها

كان أبيًّا : لو خُطبتْ له إمارةٌ على أن يكون مَهرَها ذُلُّ ساعة : لآثر أن يَزِفَّ الى قبره (١) ، على أن تُزَف اليه الامارة

كان صُلْب العود على النُّوَب : إذا رماه الدهر بخَطْب يبلوه ، بُلِيَ منه الخطبُ بالنفس المرّة ، والخُلُقِ الوَعر ، والصدر الذي تضلُّ في ساحة صبره كل نائبة

كان متورّعا : لا يقوم مَقاماً يقع عليه ظِلُّ رِيبة ، ولا يقفُ موقفا تسحب فيه ذيلَها شبهة ، ولا يقول قولةً أو ينظرُ نظرة تعقبها ظنّة

كان كريماً جَمَّ الايثار : يطوِي بطنه عن جاره ، ولا يملك من ماله أكثرَ مما يملك منه اخوانه

كان يقنع بالقليل : فما أكل فبلغ الشبع ، ولا شرب الا دون الرِّى ، ولا لبس مُنَمْنما ولا مُعْلَما ، وكان فيه عِزّة الملك وعليه سِمات الزاهدين

كان فتيًّا : ولكن همّته كانت ترمى به وراء سِنّه ، وهو يرمى بهمته حيث أشار اليه السؤدد

---

(١) زف الرجل يزف (بكسر الزاي) : اسرع في سيره

كان باهر الادب : يشير عليك موهما أنه يستشيرك ، ويدلك على الرأى وكأنه يستدلُّ بك عليه ، ويريك مَقطعَ الحقّ ويدع لك أن تقطع من دونه ، ولو رأيتَه وقد مَثَل بين يديه مستفيد لحسبته بين يدى المستفيد مانلا ، أو سمعته وهو يجيب مسئولا لحسبته سائلا

كان أملَكَ ما يكون لنفسه إذا رضى ، ولحلمه إذا غضب ، ولجِدّه إذا لعب ، ولوقاره إذا طرب

كان طويلَ الصمت كأن بلسانه عِوَجا ، فاذا نطق استقام على نهجٍ من البيان تتراءى فيه حِكَم تأخذ المرء قبل أن يأخذها

كان قليلا ما يكتب ، ولقد مضى عن كتاب فكان الكتاب من يدك إلى عقلك إلى روحك كالوردة الناضرة تراها نسيجاً فى أناملك حريرُه ، ثم تعرفها طِيباً فى أنفك عَبيرُه ، ثم تدركها شِعراً في نفسك وحيُه وتعبيرُه

كذلك كان صاحبى ، ولبعض تلك الخلال يُكبِرُ الرجلُ الرجل ، وقد ضرب الدهر بيننا ، فمضى وبقيتُ ، وقد :

صَفِرتْ كفى منه ومضى وقد امتلأتْ مني يدُهُ

محمد صادق عنبر

﴿ في يوم ذي قار ﴾

في أمالي القالي (١ : ١٧١) عن أبي عبيدة قال :

قال هانيء بن قَبيصة الشَّيباني لقومه يومَ ذي قار وهو يحرّضهم : « يامعشرَ بكر ! هالكٌ معذور ، خيرٌ من ناجٍ فَرُور . ان الحَذَر ، لاينجي من القدَر . وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ، ولا الدنية . استقبال الموت خيرٌ من استدباره . الطعن في ثُغَر النحور ، أكرم منه في الاعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا ، فما للمنايا من بُدّ . . .

أيمان العرب في الجاهلية

صناعة أبي إسحاقَ إبراهيمَ بن عبدِ الله النجيرَمِيّ الكاتب رحمه الله تعالى

من رجال اللغة والادب في دولة كافور الاخشيدي في مصر

نقلاً من نسخة الخزانة التيمورية (٣٦٢ لغة) ونسخة دار الكتب المصرية (٢٢٤ مجاميع)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو أسحاقَ ابراهيمُ بنُ عبدِ الله النَّجيرَمي الكاتبُ :

كانت العرب في الجاهلية على مذاهبَ : فكان معظمهم ممن يدين الله[1] (تعالى ذكرُه) ، ويتمسَّك بإرثٍ من ملَّة ابراهيم (صلى الله عليه وسلم) ، ويحجُّ ويتألَّه ويعظِّم الحرَم ، والأشهر الحرُم ، ويضع فيها أوزارَ الحرب ، وان ظفِر بعدوِّه فيها لم يمسسْه بسوء

وكانوا في ذلك أخيافاً[2] : فكان منهم مَن يستحلُّ في الحرَم المُحَلَّ والمُحَرَّم ، ومنهم من يُحرِم عن المُحَلّ والمحرَّم ، ومنهم من يُحِلُّ عن المحرَّم ويحرم عن المحَلِّ

قال أبو اسحاقَ : وكان عمرو بن كلثوم التغلبي من المحلّين

قال : وفي كل العرب خصائص تفعل هذا ماخلا طَيِّئاً وخَثْعَمَ ، فانهم كانوا لا يحرمون عن مُحَلّ ولا محرَّم

ومنها طائفة تعبد الأصنام وتزعم أنها تقرِّبهم الى الله عزَّ وجلَّ ، كما ذكر الله عزَّ وجلَّ في قوله « ما نعبدُهم إلاَّ ليُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى » وكما قال أيضاً

(١) في النسخة التيمورية « معظمهم من يدين »

(٢) الخيف (بالتحريك) : ان تكون احدى العينين زرقاء والاخرى كحلاء . ثم قيل : اخوة أخياف لبني الام الواحدة اذا اختلفت آباؤهم ، ثم قيل للمختلفين في أي أمر من الامور : هم أخياف ، ومنه هذا الذي نحن بصدده . الواحد أخيف والانثى خيفاء

فيهم « ويعبدُونَ من دُون الله ما لا يضُرُّهم ولا ينفعُهم ويقولون هؤلاء شُفَعاؤُنا عندَ الله »

ومنهم طائفة تعبُد الأصنام وتُقسم بها ويزعمون أنها هي الضارَّة النافعة ، كما ذكر الله عزَّ وجلَّ في قصة ابراهيم عليه السلام وقومه

فالطائفة الأولى تُقسِم بالله تعالى ، والقَسَمُ به عندهم أعظم الأيمان . ولذلك قال النابغةُ :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ (١)

وأخبر اللهُ تعالى فيهم بذلك فقال « وأقسَموا بالله جَهْدَ ايمانهم »

ويقولون « والله » فانها تملأ الفم ، وترقئ الدم . أي تبرئ الظنين بالدم من الدم ، فيرقأ دمه أي يسكن محقوناً في مسكه فلا يراق

ومنه قولهم « لا تسبُّوا الابل فان فيها رُقُوءَ الدم (٢) » أي انها تعقل في الديات فترقأ بها الدماء المحقونة بالاراقة

ومنه قولهم « لا رقأت [عَبْرتُه (٣)] » أي لا هدأت ،

وبعضهم يقول « وتقطع الدم » أي يبرأ بها الرجل من الدم فيرقأ دمه

---

(١) يخاطب النعمان بن المنذر في قصيدة بعث بها اليه من الشام مدة اقامته في ضيافة ملوك غسان ، يتنصل مما رمي به عنده ، ويعتذر عن مدحه لآل غسان ، ومطلعها :

أتاني ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

(٢) تنسب هذه الكلمة الى أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب وخطبائها وحكامها وهو صحابي أو تابعي . ونسبت الى قيس بن عاصم المنقري الحكيم الصحابي رضي الله عنه في وصية كتب بها الى طيء وهي « لا تسبوا الابل ، فانها رقوء الدم ، ومهر الكريمة ، وبألبانها يتعف الكبير ويغذى الصغير ، ولو ان الابل كانت الطعن لطعنت » نقله الزبيدي في التاج عن شروح الفصيح . وقال المفضل الضبي :

من اللائي يزدن العيش طيباً وترقأ في معاقلها الدماء

ووردت الكلمة في أكثر كتب اللغة والادب

(٣) الزيادة من التيمورية

وقد قيل : ان القوم اذا اصطلحوا بعد حرب وتحالفوا بالله الأجلّ رقأت دماؤهم أي هدأت

ومن أيمانهم « لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة » أي من فوق سبع سماوات . ثم خصوا السماء الدنيا بهذا الاسم . والرقيع مذكر . وقيل يسمى رقيعاً لأنه رقع بالنجوم . وتقول العرب « لا أفعل ذاك ولو نزوتُ في الرقيع » كقولهم « ولو نزوت في اللوح » و « لا نزوت في الشكالة » . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد [بن مُعاذ لما حكم في بني قُريظة « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة] (١) أرقعة»

ومن أيمان هؤلاء « لا والذي شقّ الرجالَ للخيل ، والجبالَ للسيل (٢) » . والمعنى : لا والذي خلق الرجال على هذه الخلقة . هذا معنى « شق » هاهنا . وهو كتسميتهم خروق البدن شقوقاً

وعلى هذا المذهب انما قولهم « لا والذي شقهنّ خمساً من واحدة (٢) » يعني أصابع يده إذا حلف فرفع يده وفرّق أصابعه

ومن أيمان هؤلاء أيضاً « لا والذي وجهي زَمَم بيته (٢) » أي نحو بيته ومواجه بيته . ويقال « مرّ بهن على زمم طريقك » كأنه مزموم نحوه

ومنها أيضاً « لا والذي لا يواريني منه خَمَر » . فالخمر ما واراك من شجر . المعنى : لا يواريني منه شيء . وانما ذكر الخمر لأن من شأنهم التواري في الخمر ومثله « لا والذي لا يواريني منه غيب » والغيب كل ما واراك من شيء :

---

(١) الزيادة من نسخة دار الكتب المصرية . وورد الحديث في النهاية لابن الاثير (مادة رقع)

(٢) ورد في المزهر (٢ : ١٦٨ الطبعة الثانية) عن كتاب المثنى لابن الكيت وفي ذيل الامالي والنوادر لابي علي القالي (ص ٥١) وفي المخصص (١٣ : ١١٨)

من شجر ، أو جبل ، أو حائط ، أو غير ذلك [١]

ومنها أيضاً « لا والذي لا يُتَّقَى بوجاح » أي لا يستر منه وجاح فيتقى به . والوجاح كل ما حال بينك وبين شيء من ستر أو ثوب أو حائط أو غير ذلك . ومنه « ثوب موجَّح » أي صفيق جداً

ومنها أيضاً « لا والذي لا أتقيه إلا بمقتلِه [٢] » أي كيف رمت أن أتقيه فهناك المقتل .

ومنها « لا والذي أخرج العَذق من الجَرِيمة ، والنار من الوَتِيمة [٣] » العَذق النخلة والجريمة التمرة المجرومة أي المصرومة . أراد النواة ، [٤] والوتيمة فلقة أي قطعة من حجر تثمه أي تكسره من قولك وثم يثم وثماً أي كسر . ومنه قول عنترة : تَطِسُ الإكامَ بوقع خُفٍّ مِيثَمِ [٥]

---

(١) ومنه سميت الاجمة ذات الشجر المتكاثف غابة لانها تغيب ما فيها

(٢) في النيمورية « بمقتله » ، وفي نسخة دار الكتب المصرية « بمقتله » وكذلك في المزهر (٢ : ١٦٨) عن كتاب المثنى لابن السكيت وفي المخصص (١٣ : ١١٨) . وأورد القالي (٣ : ٥١) روايتين احداهما « بمقتله » أي كل شيء مني مقتل من حيث شاء قتلني ، وهي رواية ابن الاعرابي في النوادر . والاخرى « لا والذي لا اتقيه الا بمقتلة » من القتل وهو الموت أي الموت في عنقي فكل شيء حتف

(٣) ورد في النهاية لابن الاثير (عذ ق وثم) وفي تاج العروس في المادتين ونقل القالي في أماليه (١ : ١٠٢) وصاحب لسان العرب (وثم) والزبيدي في التاج عن محمد بن السائب الكلبي ان الاوس بن حارثة عاش دهراً وليس له ولد الامالك ، وكان لاخيه الخزرج بن حارثة خمسة اولاد ـ عمرو وعوف وجشم والحارث وكعب ـ فلما حضره الموت قال له قومه :

ـــ قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك ، فلم تزوج حتى حضرك الموت ...

فقال الاوس : ـ لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك . وان كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فاعل الذي استخرج العذق من الجريمة ، والنار من الوتيمة ، أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بسلا ... الخ

(٤) النسخة النيمورية ناقصة من هذا الموضع الى موضع الاشارة في ص١٠٩

(٥) هو من المعلقة ، وصدره :

« خطارة غبّ السرى زيافة »

ويروى « بذات خف » والوطس: الضرب الشديد . وخف ميثم : أي شديد الوطء

يصف خف ناقته أي مدق مكسرها

ومنها أيضاً « لا والذي فلق الحبَّة ، وبرأ النَّسمة [١] » فلق الحبة أي شقها في الارض حتى تنبت ، ثم أثمرت فكان منها حبٌّ كثير . وكل شيء شققته باثنين فقد فلقته . قال : والنسمة كل نفس ذات نفَس فهي نسمة . وسميت نسمة لتنسمها الهواء

ومنها أيضاً « لا والذي سَمَكَ السماء »

ومنها أيضاً « لا والذي يراني من حيث ما نظر [٢] »

ومنها أيضاً « لا وفالق الاَصباح [٣] ، وباعث الارواح » يريد جمع روح

« لا ومُجري الرياح »

و « لا [و] مجري الالاهة » وبعضهم يقول « الاهة » يجعلها معرفة علماً هي اسم الشمس التي تعبدها [٤] ولذلك سموا (عبد شمس) و (عبد الشارق) كما سموا (عبد الله) و (عبد الرحمن)

ومنها أيضاً « لا يأتمر له جُدولي » . قال : الجدول الأعضاء واحدها جَدْل ومعنى هذا : ان أعضائي كلها جندَ الله تعالى عليَّ

ومنها أيضاً « لا ومُنزل القَطر »

---

(١) أورده الراغب في محاضرات الادباء (١ : ٣٠٠ الطبعة الاولى) وابن الاثير في النهاية (نسم وفلق) وقالا : كان من حلف أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه

(٢) نسخة دار الكتب المصرية «مانظرت» وصححته من أمالي القالي (٣ : ٥٢) ومما جاء في المزهر (٢ : ١٦٨) عن ابن السكيت في كتاب المثنى ومن المخصص (١٣ : ١١٨)

(٣) في امالي القالي وفي المزهر والمخصص

(٤) في تاج العروس : والالاهة الشمس غير مصروف بلا الف ولا لام وربما صرفوا وأدخلوا فيه الالف واللام وقالوا الالاهة . قال الجوهري وأنشد أبو علي :

فأعجلنا الالاهة أن تؤوبا

وبعضهم يقول « لا ومُقَطِّع القَطر [١] » لأنه ينزل [٢]

« لا ومميت الرياح [٣] » لأنهم يقولون بإماتة الريح

« لا ومُجري البحر »

« لا ومنشيء السحاب »

« لا والذي دَحَى الأرض » أي مدّها وبسطها

« لا ومميت الرياح [٤] » لانهم يقولون ماتت الريح اذا سكنت. قال الراجز :

إني لأرجو أن تموتَ الريحُ
فأقعد اليوم وأستريحُ

« لا والذي سجد له النجم والشجر » النجم من النبات ما نَجَمَ منه وانفرش على وجه الارض ولم يرتفع عنها بساق

« لا والذي حجت له العائر » جمع عمارة وهي الحيّ الكبير

« لا والذي ذابت له الشعور »

« لا وفاطر الأشباح » يريد جمع شَبَح وهو الشخص

« لا والذي يرصدني أنّى سلكت » من قوله عزّ وجل « إن ربّكَ لبالمرصاد »

« لا وربّ الشمس والقمر »] [٥]

« لا وربّ البيت والحَجَر [٦] »

---

(١) في أمالي القالي (٣ : ٥١) . وفي المخصص (١٣ : ١١٨) القطرة

(٢) أظن هنا كلمة أو كلمات سقطت من الاصل

(٣) في المزهر عن ابن السكيت

(٤) ورد في الاصل هكذا مرة ثانية ، وقد تقدم آنفا

(٥) آخر الناقص من نسخة الخزانة التيمورية أوله في ص ١٠٧

(٦) البيت : الكعبة ، بيت الله الحرام . والحجر : الحجر الاسود في الركن الشرقي من أركان الكعبة

« لا والذي أخرج الماء من الحجر ، والنار من الشجر »

« لا ورازق الأنام »

« لا ورب النور والظلام »

« لا ورب الحلّ والحرام » قال مُهلهِل :

قتلوا كُليباً ثم قالوا ألا اربعوا كذبوا ورب الحِلّ والاحرام

« لا والذي أَمَنَه من كل أوب » أمنه يعني الابل ، أضمرها ولم يجر له ذِكر ، وهذا على عادتهم في مثله . من كل أوب أي من كل مسلك ومن كل طريق يأوب منه الآيبون

« لا والراقصات ببطن مَرّ [1] » يعني الراقصات بركبانهنّ

« لا والذي رقصن ببطحائه [2] » رقص وأرقص لغتان . والابطح والبطحاء ما انبطح واتسع من بطن الوادي وهو خير

« لا والراقصات ببطن جَمْع [3] »

لا والذي نادى الحجيج له [3]

« لا وقائي نفسي [4] » أي الذي جعل نفسي قُوتاً لمدة حياتي. قال : ويقتانه يذهب به شيئاً بعد شيء ، كما قال طفيل :

يقتاتُ فضلَ سَنامها الرَّحْلُ

---

(١) بطن مر : من نواحي مكة على ليلتين منها ، قال ياقوت : فيه عيون كثيرة ونخل وجيز ، ويقال له (مر الظهران) وفيه يجتمع واديا نخلة الشامية من منازل هذيل فيصيران واديا واحداً

(٢) أورده القالي (٣ : ٥٢) والسيوطي في المزهر (٢ : ١٦٨) عن ابن السكيت ، وابن سيده في المخصص (١٣ : ١١٨)

(٣) جمع : هي المزدلفة ـ بين عرفات ومنى ـ يجتمع الناس فيها ليلة الافاضة من عرفات ، ثم يستأنفون السير الى منى في الصباح . وقد ورد هذا البيت في أمالي القالي والمزهر والمخصص

(٤) في أمالي القالي وفي المزهر عن ابن السكيت وكذلك في المخصص (١٣ : ١١٨) « لا والذي يقوتني نفسي » وفي تاج العروس (قات) : لاوقائت نفسي

أي ينقصه الرحل شيئاً بعد شيء ، فكأنه له بمنزلة الموت حتى يأتي عليه. قال : وبعضهم يقول « لا وقائت نَفسي القصيرِ [1] » يريد قصر العمر

ومنها قولهم « يمين الله لقد كان كذا » و « أيمن الله » قال نُصيب :

وقال فريق أيمن الله ما ندري

و « أيم الله . . » و « أُيم الله . . » و « م الله لقد كان ذاك ». وقال يونس النحوي : أهل اليمامة يقولون « أُمُ الله » وقال آخرون « أيمُن الله ، وأيمُن الكعبة » كأنه جمع يمين

ومنها « عمرك الله هل ذاك ؟ » والمعنى عمرتك الله ، أي سألت الله تعميرك ، وهو معنى قول العامة « بالذي يعمرك » . قال ابن الاعرابي عمرُك الله بالرفع ، والنصب الوجه ، وعليه رواة أهل العربية . وقال آخرون « عمر الله »

ومنها أيضاً « قعدَك الله » و « قَعيدَك الله [2] » وقالوا أيضاً « قعدك لأفعل ذاك » و « قعيدك . . . » قال متمم بن نُوَيرة :

قعيدَكِ أن لا تسمعيني مَلامةً فلا تكلاي قَرح الفؤاد فيَبجعا

ومعناها أخصب الله بلادك حتى تكون مقيما فيها قاعداً غير منتجع

ومنها « لا ورافعها بغير عمد ، لا وسامكها ، لا وباسطها - يعني الارض - لا وماهدها ، ودلحيها » يعني الارض

« لا والذي أمدّ اليه بيد قصيرة [3] » أي بسعي قصير ومنه « اليد العليا خير من اليد السفلى »

---

(١) كذا في الموضعين من أمالي القالي والمزهر وفي المخصص (١٣ : ١١٨) . قال القالي : القائت من القوت يعطيه قليلا قليلا . وفي تاج العروس (قات) « لاوقائت نفسي البصير » وفي النسخة التيمورية : لاوقابتي نفسي القصير . وفي نسخة دار الكتب المصرية : لاولابتي نفسي القصير (٢) المزهر (٢ : ١٦٨) من ديوان الادب للفارابي والمخصص (١٣ : ١١٧) عن أبي عبيد (٣) القالي (٣ : ٥٢) والمزهر والمخصص

« لا والذي نادى الحجيج [له] [1] » أي من أجله ، أي دعوه

« لا والذي كل الشعوب تدين له » ويقال أيضاً تدينه [2]

« لا والذى يراني ولا أراه » [3]

أبو زيد : قال العقيليون « حرام الله » كقولهم يمين الله [3]

أو تجنى العلى ولا تتجنى

علموها الفنون فناً فننا هي أولى بالعلم منكم ومنا
لا اختيالا في مرقص اللهوى تمشي وبكفي قرنها تتثنى
خلقت زهرة لنا ، ليس إلا من رياض العفاف والصون تجني

* * *

يا ذواتِ السوارِ إرحمن صبًّا بهواه أنَّى توجه أنَّا
كلما عنَّ منكِ سربٌ أتاه ناشداً لبه فعاد معنى
دعن جر الذيول واسحبن للمجـ ـد على أشرف الكواكب ردنا
حسبُ الحافظك أحوارٌ وغنجٌ قد فتنتِ بها الغزالَ الاغنَّا
فاكحُليها بالسهد تجني غداً ليس تجنى الا اذا الليل جنا
انما العز بارتياد مجالي صحف هن للفضائل مجنى
فانسجي بالعلوم برد سعود تُلبسيه من الشقاء مجنًّا
فاذا شف عن كمال جمالٌ فيك فهو الجمال لفظاً ومعنى
واذا الحسن ذانه حسنُ خلقٍ وطباعٍ فقد تضمن حسنا

* * *

يا بنفسي فريدة لم يخامر مقلتيها الكرى فتغمض جفنا

(١) تقدم (٢) والثانية رواية وردت في أمالي القالي والمزهر والمخصص
(٣) المزهر والقالي والمخصص

تحتسي من مراشف العلم خمراً وبشعر كلفظها تتغنى
هاك يا هذه حشاي كِناساً وفؤادي اسيف لحظيك جَفنا
لا تلمها على دلال وغنج أوَ تجني العُلى ولا تتجنى

***

أنا أبغي الزواج ، لاذات حسنٍ تفضح البدر وهي أصغر سنا
انما اطلب الجمال مزيناً بكمالٍ والحسنَ زين بحسنى
فالشقيُّ الشقي إن قارنته ذات علم كان السعيدَ المُهنّا
والسعيد السعيد إن قارنته ذات جهل كان الشقي المعنّى

***

انما الأمهات دار فنونٍ بين افنائها بناتٌ وابنا
فاذا أسهلت ترى العيش سهلاً واذا أحزنت ترى العيش حزنا
ليس من مذهبي السفور ولا أن تهجر العلمَ أو ترى الجهل خدنا
فحجاب وعفة وكمالٌ وجمال في مذهبي الحقّ سُنّا
رب قول إن التعلم للمرأ ة ذات الحجاب لا يتسنى
وهو ـ لو أنصف المحكمُ ـ زورٌ ضل شادٍ بلفظه ، يتغنى
ما عليها أن تدرس العلم عمّن درست مثلها وتحجب عنا
حيّ غني مغانياً سحبت فيـ ـهن ذيل العفاف مغنى فمغنى
وخدوراً تُجنّ منها وجوهاً خفق الصون فوقها فاطمأنا

***

قل لذات السفور لانحن منها ما تراءت لنا ولا هي منا
انما نحن للحجاب رجالٌ ان حيينا يحيى وان نفنَ يفنى
أنا يا ربة الحجاب أسيرٌ لك إن تُحجبي عفافاً وصونا
لا تقولي مهضومة أو دعوني من حَضيض الاسار والذل سجنا
لستِ والخدر ضمّ شخصك إلا جوهراً في خزائن الفضل كُنّا

(جبل عامل) (الحوماني)

ابراهيم عليه السلام تركي !

كتبت هذه المقالة لعدد الماضي من (الزهراء) باسهاب ، فضاق نطاقه عنها . وقد اكتفيت بتلخيصها في هذا العدد

نشرت صحيفة (توحيد افكار) التركية الاسلامية مقالتين في باب « التحقيقات العلمية والقومية » عنوانهما « ابراهيم عليه السلام تركي » بقلم اسماعيل حقي بك ـ وهو امير ألاى من اركان الحرب ـ قال فيهما انه ما برح منذ سبعة اشهر يبحث ويحقق في جنسية سيدنا ابراهيم الخليل حتى توصل الى القول بانه من اصل تركي . واستنجد المشتغلين بتاريخ القومية التركية من افاضل القوم ـ وسماهم باسمائهم واحداً واحداً ـ ليساعدوه في اتمام هذا البحث وفي تحصيل البراهين الايجابية على صحته حتى يصبح حقاً لامرية فيه

وهذه براهين اسماعيل حقي بك على تركية أبينا ابراهيم :

ان ابراهيم ولد في (أور) وهي من بلاد السومريين وهم من أصل تركي [1] ومعنى « أور » القلعة والخندق ومنها (أورخان) بمعنى أمير القلعة

جاء في القرآن الحكيم « أم تقولون إن ابراهيم واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والاسباطَ كانوا هُوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله » وهي تنفي انتساب اليهود الى ابراهيم من جهة القومية . وقد علم اسماعيل حقي بك ان البيضاوى فسر الآية بمعنى القومية العبرانية لابمعنى الدين اليهودي . وما دام ابراهيم ليس من قوم اليهود الذين هم ساميون فهذا دليل على انه تركي

قلت : هذه الآية هي الآية ١٤٠ من سورة البقرة وهي تدل على ان ابراهيم

(١) كون السومريين أو الاكاديين من أصل توراني قضية اختلف فيها العلماء . قال السيد يوسف داود مطران دمشق على السريان في هامش مقدمة كتابه (اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية) المطبوع في الموصل : قام من بين علماء أوربا أنفسهم من فند هذا المذهب ... ومن جملتهم رينان الشهير بالعلوم السامية حيث ضحك على زعمهم ... الخ

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط لم يكونوا يهوداً ولا نصارى لانهم كانوا قبل نزول التوراة والانجيل ، وانما جاء ابراهيم بالحنيفية التي كان يدين بها الموحدون من العرب ولاسيما في الحجاز . وليس في كلام القاضي البيضاوي ما فهمه الكاتب

وقال : ان الطوفان كان خاصاً بما بين النهرين ، وابناء نوح هم بعض البشر ، فالتورانيون كالآريين هم فريق آخر غير الساميين أبناء نوح

ثم قال : وآباء ابراهيم لا تشابه اسماؤهم الأسماء السامية ، فاسم (تارح) محرّف عن (تاراج) بالجيم ! وهو احد أجداد التركمان . واسم (عدنان) من سلالة اسماعيل اصله (سادنان) وهو اسم أحد التركمان الاقدمين . و (آذر) الذي سمي به ابو ابراهيم في القرآن هو اسم تركي بمعنى العالي ومنه (آذربيجان) المؤلفة من كلمة آذر بمعنى الاكمة العالية وبيكان بمعنى العظماء

وقال : واسم (ابرام) الذي كان يسمى به (ابراهيم) من مصدر (بارمق) ومنه (بارسام) ويحرّفونها بلفظ (بارام) ومن عادة الترك ان يزيدوا الفاً على أول بعض الكلمات كما فعلوا باسم شهر رجب فقالوا (ارجب) وكذلك قالوا في بارام (ابرام)

أما سبب هجرة تارح الى حران فاما لانها العاصمة الثانية لعبادة القمر وكان الترك يتخذونه الها ، أو لانها من مدائن الحثيين الذين كانوا من الجنس التركي ، والرعاة (الهيكسوس) الذين حكموا مصر هم أيضا من الترك منضماً اليهم أقوام آخرون ، فهجرة تاراح الى حران انما دعاه اليها مجاورة بني قومه ودينه

وصفوة مقاله ان ابراهيم ليس من الساميين . ولا يمكن القول بأنه من الآريين ، لان الفرس كانوا في الجانب الشرقي من أرض العيلاميين والكوشيين الذين انقرضوا قبل ذلك بكثير ، فأحفاد ابراهيم اذن من الامم التورانية . . .

* * *

ولما أرسل اسماعيل حقي بك صوته يستنجد المشتغلين بالابحاث التورانية من من بني قومه أجابه يوسف ضيا بك الاستاذ في جامعة القسطنطينية ، فكتب في

(توحيد أفكار) مقالاً استدل فيه على تركية أبينا ابراهيم ببراهين أخرى

فابتدأ براهينه بتحريف اسم (عابر) جد ابراهيم فجعله « ئه به ر » وقال ليس بين الاقوام السامية قوم بهذا الاسم ، ولا بد ان يكون « ئه به ر » هو جد الشعب التوراني الذي يدعى (ايبر)

ثم عمد الى اسم (سروج) من أجداد ابراهيم فجعله « سه روغ » وقال ان هذه اللفظة غير سامية وهي اسم طير اتخذه أحد الشعوب التورانية عنواناً له

ونقل بعد ذلك عن كتاب في الفينيقيين للسيو اوتران أنهم ليسوا ساميين ولا آريين ، وان اسم ابراهيم أيضاً ليس ساميًا ولعل أصله « ايبراموس » أو « ييبراموس » . قال و « ايبراموش » بالتركية بمعنى الشيخ . وان اسم العبرانيين أنفسهم لا معنى له باللغة العبرية ، وما فسروه به من أنه بمعنى « القادم من بعيد » تفسير لا يصلح لاسم أمة . قال : وعندي انه من اسم « ايبر » أحد الشعوب التورانية . وكلمة « توراة » مأخوذة من « تورم » بالتركية بمعنى القانون

ثم حرّف اسم (تارح) الى (تارخ) وقال ان هذه الكلمة أهم ما في الموضوع ، فقد استعملتها أقوام كانت لها السيادة على سواحل البحر الابيض قديماً وقامت بوظيفة التمدين وتركت هذه الكلمة علامة عليها في كل مكان . قال : وأنا قد برهنت في كتاب أؤلفه الآن على ان ما كان عند هذه الاقوام من نظام الاسرة والطبقات والاوضاع المدنية والدينية هو مما اختص به التورانيون . وهذه الاقوام تدعى في الكتابات المصرية باسم (تارغان) وفي الكتابات الاشورية باسم (تارتان) وفي ايطاليا باسم (تارخانا ، تارخينا ، تاركينا) وفي اسبانيا باسم (تارخانا ، تاركينا) أيضا . وقد سميت خطأ باسم (الحثيين) وتحقق الآن أنها من أمم الخطا . وهي نفسها تستعمل في لسانها كلمة (تارخون ، تارخا) وبها سمت أحد ملوكها (تارخوندا موش) . ومعنى « تارخان » بالتركية

أمير ومن يدخل على الملك بلا استئذان . وفي جهات بخارى وسمرقند الآن قبيلة (تارخان) وكانت عماد تيمورلنك في غزواته . و (تارغان) في تاريخ مصر القديم بمعنى الرئيس والامير ، وفي تاريخ الاثوريين بمعنى قائد الجيش ، فهي مأخوذة من لغة السومريين

فاذا كان ابراهيم من بلدة (اور) السومرية وجده الاعلى (ثه بهر) وجده الادنى (ساروغ) واسم ابيه (تارخ) وهو نفسه غير ساميّ فنتيجة ذلك ظاهرة

كان المصريون يسمون سوريا قبل الكنعانيين باسم خارو ، والبلاد الممتدة من مديا وثه لام (يريد عيلام) تلفظ القاف خاء وكان أحد ملوك ثه لام (عيلام) يدعى (خارا خارداش) أى قره قرداش . وعلى ذلك فلفظ خارو أو قارو معناه بلاد القاريين وهم من الترك وكانوا في جنوب ازمير وفي فلسطين وجبال الكرد

ومن القبائل الكنعانية الآمو والشاسو والاموريون (العموريون) والقرغز والقازاق[1] والاروادين وغيرهم . ان هذه القبائل كلها تورانية . وجميع بلاد الشام كان يسكنها التورانيون الذين يسمون كنعانيين . وجميع الاماكن في سورية وفلسطين ولبنان مسماة باسماء تركية . وقد توقف ابراهيم في طريقه عند (قيريات أربا) ومعناها الشعير القصير ، وأقام بعدذلك في بتيل وآي[2]

ذابت هذه الامم التركية بعد ذلك في الامم السامية لانها كانت بين امبراطوريات مصر وبابل وآثور وخطاي التي كانت تتطاحن ، وكانت الاقوام التورانية نفسها أيضا في نزاع مستمر فيما بينها

* * *

هذا وقد كتب غير هذين الكاتبين في هذا الموضوع ، وكان في مقالة

---

(١) لعل الكاتب التركي حرّف اسماء (التينين) و (القنزيين) و (القدمونيين) المذكورين في التوراة (تكوين ١٥ : ١٩)

(٢) هما بيت ايل وعاي ، وقد حرفهما الكاتب التركي لاذ آي بالتركية معناها القمر

اسماعيل حقي بك تعريض يتعلق بقرابة سارة من ابراهيم فانبرت للرد عليه مجلة (سبيل الرشاد) ومجلة (محفل) التركيتان الاسلاميتان

وما لخصناه من الآراء العلمية مشحون بالمغالطات والتحريف ، وانما أردنا بتلخيصه ان نبين مرامي القوم ، وما يغرسونه في نفوس ناشئتهم منذ اليوم

﴿ الأميرة غالية ﴾

بمناسبة هجوم الوهابية الاخير على الطائف

قال المرحوم محمود باشا فهمي المهندس في كتابه البحر الزاخر (١ : ١٨٣) واصفاً بطولة امرأة عربية في حرب الوهابيين سنة ١٢٢٨ هـ :

« لم يحصل من قبائل العرب مقاومة أشد مما أجراه عرب أبي جوم في (تربة) وكان قد لجأ اليها معظم عساكر الشريف غالب ، وصارت تجمع كل الوهابيين الموجودين في الجنوب كما ان (الدرعية) تجمعهم في الشمال

وكان قائد هؤلاء العربان في هذا الوقت أرملة اسمها (غالية) كان زوجها أشهر رجال هذه الجهة ، وكانت هي على غاية من الغنى والثروة ، ففرقت جميع أموالها على فقراء العشائر الذين يرغبون في محاربة الترك

ففي أوائل نوفمبر سنة ١٨١٣ (ذي الحجة ١٢٢٨) سافر طوسون باشا من الطائف ومعه ٢٠٠٠ نفس للغارة على تربة فأمر عساكره بالهجوم وكان العرب محافظين على أسوار المدينة بشجاعة ، ومستبشرين بوجود (غالية) معهم وهي المقدمة عليهم فصدوا طوسون وعساكره . وفي اليوم الثاني شرع طوسون وعساكره في التقهقر ، فاضطروا الى ترك خيامهم وسلاحهم . وكانت النتيجة المنتظرة لهذا الفشل ان يموت جميع العساكر لولا ان (توماس كيث) مع شرذمة من الخيالة استردوا مدفعا وحفظوا به خط الرجعة . وتعطلت بعد ذلك الاجراءات الحربية ثمانية عشر شهرا

حركة النشر والتأليف

﴿ شرح القصائد العشر — للخطيب التبريزي ﴾

المطبعة السلفية ومكتبتها ، ودار الطباعة المنيرية * ٣١٢ صفحة بقطع الزهراء * ثمنه ١٠ قروش

لأبي زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي ـ شارح حماسة أبي تمام ، وسقط الزند ، وديوان المتنبي — كتابٌ شرح به المعلقات السبع وقصيدة النابغة الذبياني الدالية وقصيدة الأعشى اللامية وقصيدة عَبيد البائية . وشروح المعلقات لا يُغني بعضُها عن بعض ، لامتياز كل واحد بما لا يوجد في غيره

وكان مستر تْشالس جيمس لَيَل قد طبع هذا الشرح قبل ثلاثين عاماً في مدينة كلكته (الهند) ، نقلاً عن مخطوطات كمبريج ولندن وليدن ، فنفدت نسخه لقلة ما طبع منها ولبعد العهد ، فتعذّرت الاستفادة منه . لذلك انبرى الاستاذ الشيخ محمد منير الدمشقي لطبعه في مطبعتنا معارَضاً بنسخةٍ خطية خاصة محفوظة عنده . وعلق عليه حضرة العالم الفاضل الاستاذ السيد محمد الخضر التونسي تعليقات جليلة مبسوطة زادت في قيمة هذا الشرح ، وهو مطبوع على ورق جيد مصححاً متعنى به

﴿ ياليل الصب — ومعارضاتها ﴾

المطبعة المنيرية * ٦٠ ص جاير * ثمنها قرشان

أعاد السيد محيي الدين رضا طبع قصيدة ياليل الصب لأبي الحسن الحصري القيرواني واستقصى معارضاتها للشعراء السالفين والمعاصرين ، فجاءت مجموعة أدب حافلة جيدة الطبع صقيلة الورق لا يستغني عنها الأديب

﴿ تهذيب الاخلاق ﴾

لمحيي بن عدي ، أو لابن عربي ، أو لأبي عثمان الجاحظ

المطبعة البطريركية بدمشق * المكتبة السلفية بالقاهرة * ٦٠ ص بالقطع الكامل * ثمنه * قروش

من المخطوطات التي دخلت خزانة المجمع العلمي العربي في دمشق السنة الماضية مجموع في جملته (كتاب تهذيب الاخلاق للجاحظ) فبادر الاستاذ العلامة السيد محمد كرد علي رئيس المجمع الى نشره ضناً بكتاب للجاحظ ان يبقى منزوياً في الخزائن ، غير منشور في أيدي المعجبين ببلاغة هذا الامام الكبير . وبعد المضيّ في طبعه تبيّن أن الكتاب هو الذي نشر في القاهرة مرتين سنة ١٨٧٢ و ١٩١٣ م منسوباً الى يحيى بن عدي من علماء النصارى اليعقوبيين المتوفى سنة ٣٦٤ هـ ونشر في القاهرة أيضا مرتين أخريين سنة ١٩٠٧ م و ١٣٣٢ هـ منسوباً الى ابن عربي المتوفّى سنة ٦٣٨ هـ . فنشر الاستاذ كرد علي استدراكا في آخر الكتاب ذكر فيه ما وقف عليه في هذا الباب ودعا الى زيادة التحقيق في هذا الامر

وهذه الطبعة بلغت حد العناية والجودة والاتقان في تصحيحها وطبعها وورقها . فنشكر للمجمع العلمي العربي عنايته بعلوم العرب وآدابها ونتمنى ان يكثر عدد الكتب التي تنشر بعنايته لتظهر بمظهر الكمال والجمال

﴿ ألفية ابن مالك ﴾

ادارة الطباعة المنيرية * المكتبة السلفية * ٦٨ ص جابر * ثمنها قرشان ونصف

أعادت ادارة الطباعة المنيرية طبع متن الالفية لجمال الدين محمد بن مالك الاندلسي المتوفى في دمشق عام ٦٧٢ مشكولة مصححة حسنة الطبع جيدة الورق وهي وشروحها وحواشيها تكاد تكون عمدة الاقطار العربية في تعليم النحو

﴿ العصبية عند العرب ﴾

للدكتور على مظهر

مطبعة مصر ٭ المكتبة السلفية ٭ ص ٨٣ جاير ٭ ثمنه ٦ قروش

وضع الدكتور علي مظهر — الحاصل على اجازة الآداب والفلسفة من الجامعة المصرية — رسالة باللغة الالمانية عنوانها (العصبية عند العرب فى الجاهلية والاسلام حتى زوال بني امية من المشرق — بالاشارة الى شعرهم على وجه خاص) وقدمها في العام الماضي الى جامعة فينة فحصل بها على اجازة العالمية من كلية الفلسفة فى تلك الجامعة . وقد رأى حقاً عليه أن يطلع قومه على ما كتبه فى تلك الرسالة باللغة الالمانية فنقلها الى العربية وهى مأخوذة من مصادر عربية وافرنجية كثيرة العدد

﴿ الحضارة المصرية ﴾

للعلامة الحكيم غوستاف لوبون

المطبعة المصرية ٭ المكتبة السلفية ٭ ١٥٨ ص بقطع الزهراء ٭ ثمنه ١٠ قروش

كتاب الحضارات الاولى — Les Premiéres Civilisations للدكتور غوستاف لوبون من أجلّ الكتب التي ألفها هذا العلامة الحكيم لأنه تضمن نظرياته المشهورة في أسرار الاجتماع مع تطبيقها العملي على التاريخ ، وقد ألفه سنة ١٨٨٨ — ١٨٨٩ بعد تأليفه كتاب حضارة العرب بخمس سنوات . وهو يشتمل على مقدمة في مباديء التاريخ القديم وأصوله والقواعد التي بني عليها — كما فعل ابن خلدون في مقدمته بالنسبة الى التاريخ الاسلامي — وبعدها كتاب في الحضارة المصرية وآخر في الحضارة الأثورية ثم الحضارة الفينيقية وغيرها

وقد نشرت مطبعتنا منذ عهد قريب مقدمة هذا الكتاب العظيم مترجمة بقلم الفاضل محمد صادق رستم أفندي محرر جريدة البلاغ ، ثم صدر الآن من المطبعة المصرية كتاب الحضارة المصرية بقلم المترجم نفسه ، مزيناً بالصور الكثيرة . وفيه الكلام على بيئة المصريين وجنسيتهم ومصادر تاريخهم ، وعلى لغتهم وكتابتهم

ومعتقداتهم ونظمهم وأخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم وآدابهم ومؤلفاتهم وفن العمارة المصرية والحفر . فنلفت نظر الذين قرأوا (مقدمة الحضارة الاولى) الى ظهور كتاب (الحضارة المصرية) وجدير بمن لم يطلع عليهما من المشتغلين بالتاريخ وأسراره أن يقرأهما برويّة وإمعان

﴿ تذكرة الموضوعات — وقانون الموضوعات والضعفاء ﴾

لمؤلف « مجمع بحار الانوار » في لغة الحديث

دار الطباعة المنيرية * المكتبة السلفية * ٣٢٠ ص بقطع الزهراء * ثمنه ١٥ قرشاً

محمد طاهر بن علي الصديقي الفَتَّني الهندي (٩١٤—٩٨٦ هـ) كان رأس المحدثين في الهند ، وقد أخذ عن كبار العلماء فيها وفي الحجاز ، ومنهم ابن حجر المكي وعلي بن حسام الدين المتقي صاحب كنز العمال . واشتهر بكتابه « مجمع بحار الانوار » في غريب الحديث طبع في الهند وهو مع التكملة بأربع مجلدات ، وله المغني في ضبط أسماء الرجال ، وشرح الشافية لابن الحاجب

وقد طبع له الشيخ شرف الدين صاحب المكتبة القيمة في الهند كتابين من مؤلفاته في مجلد واحد أحدهما (تذكرة الموضوعات) قال في مقدمته : وأنا أورد بعض ما في مختصر الفيروز آبادي وفي المقاصد الحسنة واللآلىء وذيلها والوجيز وموضوعات الصغاني وموضوعات المصابيح للقزويني ومؤلفات علي بن ابراهيم العطار فأجمعُ أقوال العلماء في كل حديث كي يتضح لك الحقيق بالقبول . وهذا الكتاب في ٢٢٩ صفحة

والثاني (القانون في ضبط الأخبار الموضوعة والرجال الضعفاء) ذكر فيه الضعفاء من الرواة الكذابين والوُضَّاع والمفترين مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم في تسعين صفحة . وهو مكمل للكتاب الاول . وكلاهما من الضروريات للمشتغلين بعلم السنة

﴿ الثورة الفرنساوية — وروح الثورات ﴾

مطبعة الشرق بدمشق * المكتبة السلفية بالقاهرة * ٣٣٠ ص * ثمنه ١٠ قرشا

قال الدكتور غوستاف لوبون : انا لم أضع هذا الكتاب لأمدح فيه الثورة الفرنسوية أو لأذمها ، بل لأفسرها بالسنن النفسية التى ذكرتها في كتاب (الآراء والمعتقدات) .. وقد أتى فيه المؤلف على ذكر العناصر النفسية للحركات الثورية ، وصفات الثورات ، ومظاهر النفسية السائدة أيام الثورات . ثم تكلم على مصادر الثورة الفرنسوية ، وتأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع في خلالها ، والنزاع بين المؤثرات الموروثة والمباديء الثورية وتطور المباديء الثورية فى الوقت الحاضر . قال المؤلف : وقد يجادل بعضهم في قيمة الشروح التي ذكرتها فى هذا الكتاب ، ولكن من الصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسوية دون ملاحظة تلك الشروح . وقد عرّب هذا الكتاب السيد محمد عادل زعيتر من أفاضل الناشئة السورية التي تعلمت في اوروبا فجاء من خير ما ترجم بالعربية من كتب التاريخ وعلله الاجتماعية والفلسفية

﴿ تايبس ـ تأليف أناتول فرانس ﴾

المطبعة المصرية * المكتبة السلفية * ٢٧٦ ص جايز * ثمنه ١٠ قروش

عمّ البلوى فى هذا القطر بالروايات الجنائية والقصص البوليسية التى تبدّد وقت الجمهور وتفسد عليه طرائق التفكير المنطقى . فلا غَرْوَ اذا انصرف بعض المترجمين عن ذلك الى نقل القصص التى ألفها كبار الادباء ، ورموا بها الى مغزى من الحكمة ، أو إلى ترقيق الشعور ، وتحبيب الفنّ الى القرّاء ، ومن ذلك رواية (تايبس) التى ألفها الكاتب الفرنسوى الكبير اناتول فرانس واقتبسها من تاريخ مصر ايام البطالسة فهى من أبدع الروايات التى كتبها هذا المؤلف . وقد ترجمها الكاتب الفاضل أحمد افندي الصاوي محمد وطبعتها المطبعة العصرية على أجود ورق وبأجمل وضع يدل على ذوق فى الطباعة الحديثة

في مصر

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ الاستقلال المالي ﴾

افتتح اليومَ (١٥ صفر) فرع لبنك مصر في المحلة الكبرى وهي مدينة مصرية امتازت بالتوازن بين الانتاج الصناعي والانتاج الزراعي ، وهذا دليل على رواج الصناعة في هذه المدينة بينما المملكة المصرية قد غلب فيها الانتاج الزراعي حتى بلغ العاملون فيه نحو ثمانية أضعاف العاملين في الصناعة ، ولذلك لا تستفيد مصر من موادها الأولية الفائدة التي هي في حاجة اليها . وسيكون هذا الفرع لبنك مصر عوناً للمحلة الكبرى في نهضتها الاقتصادية

﴿ اللغة العربية في الوزارات ﴾

كان كثير من دواوين الحكومة — ولاسيما التي يشتغل مراكزها العليا موظفون من الاجانب — تصدر عنها التقارير والنشرات باللانكليزية أو بالافرنسية ، فأذاع وزير المالية مذكرة على الوزارات لفت بها نظرهن الى هذا الامر ، وذكرهن بضرورة وضع التقارير والنشرات الدورية وغير الدورية باللغة العربية لانها لغة البلاد ، ولسان حكومتها الرسمي ، وليستطيع نواب الامة الوقوف على ما يجري في دواوين الحكومة ، ويناقشوا الوزراء فيما جاء فيها

وكانت الرسائل التي تصدر من ادارة مسرح الاوبرا الملكية الى وزارة الاشغال ترد باللغة الافرنسية فأمر وزير الاشغال بأن تكون هذه الرسائل بعد الآن باللغة العربية

﴿ حماية الصناعة المصرية ﴾

تسعى الجمعية الصناعية لحمل الدولة المصرية على جعل تعريفتها الجمركية قائمة على أساس حماية الصناعة الوطنية فتخفض الرسوم الجمركية عن الآلات والمواد التي تساعد في ارتقاء صناعة مصر وزراعتها ، وتزيدها على المواد التي تزاحم امثالها مما يصنع أو ينتج في البلاد المصرية

في العالم العربي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ في ريف المغرب الأقصى ﴾

تمكن الامير عبد الكريم الخطابي من تسجيل اسمه فى تاريخ الاسلام والعرب بما قام به من جمع الكلمة وتوحيد القوة فى ريف المغرب الأقصى لاخراج الاسبانيين من تلك الربوع . وقد كانت خطته الحربية الاخيرة موضع الاعجاب فى الشرق والغرب ، فقد استدرج الاسبانيين حتى وزعوا جانباً كبيراً من قواهم من تطوان الى ششوان بين أودية وهضاب وآكام وشعاب فى خط يبلغ طوله خمسين ميلا ، ثم أطبق عليهم وقطع أكثر خطوط مواصلاتهم وما بينهم من أسلاك البرق والهاتف (التلفون) فباتوا بين قتيل أو أسير أو معتصم بجبل بلا زاد . ولا ريب أن موقف الاسبانيين اليوم معه من أحرج المواقف

﴿ ادارة التعليم في فلسطين ﴾

تبدي فلسطين رغبتها فى فصل ادارة التعليم عن الادارة الرسمية العامة وجعله في يد هيئات وطنية محضة عارفة بما تحتاج اليه البلاد من صنوف المعارف وطرائقه

﴿ العرب والفرس ﴾

أخذ الفرس يفقدون روح العطف عليهم في كثير من الاقطار لما يحاولونه من الدعوة الى عصبية غير حميدة فى العراق ابتغاء بسط سلطانهم على بلاد منه بدعوى أنها كانت لهم فى عهد المجوسية وانتزعت منهم فى الفتح الاسلامي . وكان المرجو من شبانها القائمين بالحكم فيها الآن أن يكونوا بعيدي النظر فى فهم موقف الشرق الحاضر ، وان لهم فى بلادهم غناء لو أحسنوا حكمها وسهروا على اصلاحها وتهذيب شعبها

﴿ سكة الحجاز الحديدية ﴾

ازداد عدد القطارات التى تروح وتجيء من حين الى آخر بين المدينة المنوّرة وبلاد الشام

﴿ دمشق والشركات الاجنبية ﴾

توفقت دمشق الى نتيجة ربما كانت الاولى من نوعها فى الشرق ، وهى اثبات فى مقاطعة شركة الترام والكهرباء البلجيكية مقاطعةً دامت خمسة وسبعين يوماً حتى ألجأوها الى النزول على ارادتهم والرضوخ لمطالبهم . فان هذه الشركة التى كانت تلقى عوناً من السلطات فى أكثر الادوار بما يعارض مصلحة الشعب خالفت شروط امتيازها واستبدت بجمهور الاهالي ، ولم يجد هؤلاء من الحكومة عملاً لرد الشركة عن استبدادها . فاعتمدوا على أنفسهم وتضامنوا فى مقاطعتها ، ولم تنجح كل الوسائل التى اتخذتها الشركة لالحاق الفشل بالمقاطعة ، ثم انتهى الامر فى هذين اليومين باجابة الشركة مطالب الاهالي بحذافيرها وهى عشرة مطالب ، فأعلنت لجنةُ المقاطعة للشعب جواز العودة الى معاملة هذه الشركة

﴿ نجد والعالم الاسلامي ﴾

انتهجت نجد منذ بضعة أشهر منهجاً كان موضع استحسان العالم الاسلامى وهو محاولتها الاتصال بالخارج اتصالاً أدبياً يدل على كياسة وبعد نظر ، فانها فضلاً عن استعانتها بالمتعلمين من شباب مصر والشام والعراق أخذ ولي عهد سلطنتها ينشر المنشورات فى الموضوعات العامة ، وأعلن أعيانها عزمهم على الانضمام الى مؤتمر الخلافة فى مصر ، وبعد هذا تطورا اجتماعياً بعد النزام نجد العزلة عن الناس عصوراً طوالاً

﴿ سوريا وجمعية حقوق الانسان ﴾

نشرت جريدة (الكوتديان) الفرنسوية التي تنطق بلسان المسيو هريو رئيس الوزارة في عددها ٥٥٧ الصادر يوم ١٩ اغسطس بلاغ جمعية حقوق الانسان في نقد طريقة الحكم الحالي في سوريا ، كخضوع القضاء الوطني لمراقبة المحاكم الفرنسوية ، وتعطيل الصحف الاستقلالية ، وتعدد حوادث الاعتقال والنفي . ونصحت جمعية حقوق الانسان للحكومة الفرنسوية بأن تعهد بادارة الانتداب في سوريا الى موظف مدني يسترشد بمبادىء الحق

﴿ الشجر في فلسطين ﴾

غرسوا فى فلسطين بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٤ ثلاثة ملايين شجرة وستة وسبعين ألف كرمة عنب

في العالم الإسلامي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ القيشاني الشرقي ﴾

حضر الى تركيا الأستاذ فوغل الالماني لدرس المادة التي كان يصنع منها القيشاني في الشرق وطريقة صناعته . وبعد وصوله الى الاستانة سافر الى بروصة لهذا الغرض. والاستاذ فوغل هو زميل الاستاذ ينك في القاء محاضرات عن الجغرافيا في جامعة برلين

﴿ جمعية للامم الاسلامية ﴾

كتبت جريدة (قبلة العرب) الدمشقية مقالا افتتاحيا قالت فيه : ان جمعية الامم الغربية هي التي منعت الايطاليين من الاشتباك مع اليوغسلافيين من أجل مدينة فيوم ، وهي التي لطفت من حدة الخلاف بين المانيا وفرنسا فصانت الحضارة المسيحية الغربية بما أخمدت من روح مطامع الاقوام رغم حماستها . فماذا نفعل نحن معاشر المسلمين من أجل صون حضارتنا الشرقية الاسلامية ، وهذه الحرب بين نجد والحجاز ، وهذه غارة الادريسيين على حدود اليمن ، واندلاع لهيب الثورة في الافغان . ان السبيل الموصل الى حقن الدماء قائم بانشاء جمعية امم إسلامية ينتخب أعضاؤها من جميع شعوب الاسلام فيكون فيها الهندي والفارسي والمصري والمغربي والعربي والتركي ، على شاكلة الامم الغربية . وليس في انشاء هذه الجمعية صعوبة ، فان التجانس موجود في ميول الشعوب الاسلامية ، وهي غنية بآدابها وحضارتها وثروتها . ان طائفة صغيرة من أغنياء اليهود استطاعت ان توجد فلسطين يهودية في قلب فلسطين العربية ، أفلا يستطيع أحد اقيال الهند — كأمير حيدر أباد — ان يحذو حذو روتشلد المثري اليهودي فيتكفل بالانفاق على جمعية الامم الاسلامية الشرقية ؟

﴿ مؤتمر المعلمين المسلمين في بلغاريا ﴾

عقد في بلدة (عثمان بازار) من أعمال بلغاريا مؤتمر لأساتذة المدارس الاسلامية في الشهر الماضي، حضره مندوبون عن كل مدينة فيها مدارس اسلامية. وكان هؤلاء المندوبون ذوي نزعات اجتماعية مختلفة: ففيهم أنصار الاصلاح الاسلامي والجامدون ودعاة الشيوعية. وقد دارت أبحاث المؤتمر حول برامج التعليم والتعديل الذي يجب ادخاله عليها، وحول طرق التهذيب المختلفة الجديرة بأن يقتبس منها أصحاب المدارس الاسلامية في بلغاريا مايلائم حالة البلاد. وتذاكروا أيضاً في وسائل تحسين حالة المعلمين في هذه المدارس ليستطيعوا القيام بالمهمة التي عهد بها اليهم

﴿ الترك ويوم كربلاء ﴾

كتب علي حيدر أمير بك - الكاتب التركي المشهور - مقالة ضافية في جريدة (وقت) التركية يوم ٢٣ المحرم عنوانها « الامة التركية ووقعة كربلاء » قال فيها ان رجال البكتاشية الترك مابرحوا يبكون في المحرم واقعة كربلاء، مع ان هذه الحادثة تتعلق بالعرب وحدهم لانها مبنية على تنازع السلطان بين هاشم وأمية، وكان أولى بنا وقد تركنا في ميادين القتال في الحرب العظمى ربع عدد الامة التركية بلا قبور ولا شاهد أن نبكي رجالنا وشهداءنا

﴿ القاضيات ﴾

نشرت جريدة (وقت) التركية في عددها الصادر يوم ١٧ المحرم برقية تلقتها من مراسلها في أنقرة بأن ابنة احمد بك آغايف عضو المجلس الوطني الكبير حصلت على شهادة الحقوق وطلبت من وزارة الحقانية تعيينها (قاضية) فوعدتها الوزارة بأنها ستعينها في أول منصب قضائي يكون خالياً. وبهذه المناسبة نشرت جريدة (وقت) صورة الآنسات التركيات: ثريا وملاحت وبديعة اللاتي تخرجن هذا العام في مدرسة الحقوق وسيناط بهن وظائف القضاء المدني أو الجنائي

﴿ اليهود في القسطنطينية ﴾

انشأ احمد جودت بك صاحب جريدة (إقدام) التركية مقالة افتتاحية قال فيها ان ثروة اليهود في القسطنطينية بلغت الآن عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب

الزهراء

تابع ج ٢ : م ١

الحكومة المصرية في الشام[1]

كانت الدولة العثمانية الى أواخر منتصف القرن الثالث عشر جسما كبيرا تعروه نوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوته أو يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طالت عليه معاودة النوبات قد يألفها ويظن أنه بزيء من كل خطر على حين كثرت آلامه . والادوار العصبية أشد ظهورا في ألم الجسم واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع أن يدفع ضراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معها قوة وفي الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكم فيها من أمراض عضالة وساورها من اوجاع . غفلت الدولة عن تعهد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسسوها بنيانها فكانت تعلو وتسفل وتطفو وترسب بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ؛ تقوم بالفرد ولا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول ادارة . وأهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء فأصبحت في حروبها يوم ضعفها تستهلك اكثر

(١) من محاضرات الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق القاها في نادي المجمع ، وخص بنشرها مجلة (الزهراء) ، وهي من مواد كتابه « خطط الشام »

مما تستحصل لان جيش الانكشارية وهم مستندها في قوتها عراه الانحلال. فغدت الوقعة التي كان يكتفى فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين الفاً ثم يشغب ولا يعمل عملا . ولا عبرة بالعدد اذا كان المجموع أقرب الى التفسخ ومعنويات المقاتلين الى الضعف

ان بعض الغوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من جملتها في هذا القرن. والذي قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتمرده على رؤسائه وبضعف الزعماء. واختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج والوزراء والملوك فى دار الملك . فكان. وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفّس خناق الامة من عربدتهم . وان كانت العقوبة التى نزلت بهم في الشام أخف لان بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم . وبعد أن تخلصت الدولة والأمة منهم صعب على الدولة في بضع سنين أن تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات . وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طوالاً وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل. وكيف يتأتى ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام ، لا تفتأ متنقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان

ولم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد علي في مصر — ومصر لعمري أمّ كل عجيبة — ان يتدرج بعد قتل المماليك في مراتب القوة والسيادة حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوتيه البرية والبحرية وينشط الزراعة والتجارة. وتسمو به الهمة ان لا يكتفى بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على أوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التى جرت على الاصول في تنظيم جيشها

وادارتها ونشر المعارف بين أفرادها . وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل المختلف الامراض اصعب من مداواة جسم له مرض واحد اذا عولج كان اقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطاً واسعة سريعة ، والدولة العثمانية تنظر الى هذه المظاهر باهتة وقلما يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فاصبحت دولة ابن عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت باخرى عليها واستفادت من تخالفهم وتباين اغراضهم بعد ان كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات ومنفردات بعددها وعُددها ، ولكن الجيش الذي يصل الى اسوار فينا على عجلات البقر ويقاتل المحاربين والمسالمين بالسيف والنشاب أصبح يحتاج الى اسباب في النقل اسرع وسلاح في الفتك أقطع . غدا يحتاج الى علم وعُدَد اكثر من احتياجه الى اسماء ضخمة وعَدَد . واصبحت السياسة والادارة والحرب علوما عملية ، والمدرسة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيوش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها افرادها . فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة ؟ وكيف لا تتجلى الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ودول تحركت ونمت وربت ؟ وبين امة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم تمثلهم ولم تتمثل فيهم

نسب ميشو انحطاط الدولة العثمانية واخفاقها في حكم البلاد التي افتتحتها الى عدة أسباب اهمها الجهل والجمود والغرور . قال ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية اوربا اخذ الاتراك يضيعون شيئاً من

قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية . فكان العثمانيون باديء بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم . وبه احرزت التفوق على الامم التى تريد اخضاعها لسطوتها . وغدت أوربا في القرن السادس عشر ولمعظم ممالكها جيوش يقاومون بها اعداءهم . وانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية واخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاما ورقيا في المغرب . على حين كان الاتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين اعدائهم وجيرانهم . ويزاد على ذلك ماعيث بكيان الاتراك من الخرافات وقلة التسامح فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا على ولاية يحاولون أن يحكموها بنظاماتهم ويغرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم . فاقتضى لهم من ثم أن يبدلوا وجه كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في البلاد التي ينزلونها وأن يقضوا على أهلها أو يضعونهم بحيث لا يستطيعون أن يناجزوهم الشرّ ويرفعوا رؤوسهم فيهم . ولذلك يلاحظ أن الاتراك استولوا مراراً على بلاد المجر فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ولم يستطيعوا بحال أن يؤسسوا فيها مستعمرة أو موطناً ثابتاً وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى أقطار أبعد والاحتفاظ بها وبهذا نجت ألمانيا وايطاليا من غارات الاتراك وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم وينزلوا فيها كثيرا من أبنائهم

قال « ومن الاسباب الرئيسة التي أضعفت القوة الجندية في الاتراك الحروب التي كانوا أعلنوها على أوربا وفارس فقد صدهم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى ، وجهادهم في النصارى أضرّ بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت

طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ماوراء النهر وقفقاسيا أصبحوا عاجزين عن قتال أوربا ، فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من أمم الغرب وظلوا بعدئذ بين عدوين تقريبا يهمهما زوالهم . ولقد حمل الاتراك معهم - مثل جميع البرابرة الذين أتوا من شمال آسيا - نظام حكومة الاقطاعات وكان أول عمل يأتيه أولئك الشعوب الرحالة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعيها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالا قط للاقطاعات ان تكون وراثية لتكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة هذين الشعبين واحدة وما أشبه اشياع روملوس باشياع عثمان . ويتفاوت الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان العثمانيين ظلوا كما كانوا في الاصل أما الرومان أيام فتوحهم فلم يزهدوا في معارف من فتحوا بلادهم ولم يستنكفوا من الاخذ بعاداتهم ولا معبوداتهم . لم يقتبس الاتراك من الامم المغلوبة شيئاً وتشددوا في أن يظلوا على بربريتهم ولم تتأصل الارستقراطية الوراثية في جانب الاستبداد المطلق وربما كان ذلك أحد الاسباب التي قضي بها على الامة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون ان بالارستوقراطية تتهذب الاخلاق وتتثقف عادات الشعوب وبواسطة الطبقة المتوسطة تنتشر المعارف وتبدأ المدنية . ان فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط بل انه حلّ لنا معنى جمود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات وكيف لم يتقدم قيد

غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ـ وفي حكومة تغار من كل مالا تكون هي منشأه ومصدره ـ شيء من المنافسة والقدوة وحب المجد، وبدون هذه الاسباب يقضى على كل مجتمع أن يبقى في الجهل الاعمى الذى كان عليه لاول أمره ، وان يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهد الاتراك في العلوم والآداب ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في أيدي مواليهم . وكانوا فى الحقيقة أعداءهم ، وذلك لان الاتراك كانوا يشمئزون من كل جديد ومن كل مالم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا أن يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في أوروبا . وهكذا لم يكن لهم نقض ولا ابرام في مصادر سعادتهم وقوتهم وفي متانة جيوشهم وأساطيلهم . ولا يخفى ما أضاعه الاتراك بونائهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي أصاب منه الاوروبيون قسطاً موفورا . ولما كان الشأن في حروبهم لجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما أبرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات كان العقل المساعد هو المخيف للشجاعة . شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البريتوريان في الرومان فى حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك أن يختاروا أميرهم سواء فى ذلك شعوبهم وجيوشهم وكانت مصلحة الانكشارية تقضي أن يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . أما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة أكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا على مدينه الاستانة كانوا يوجهون أنظارهم على الدوام الى البلاد التي أنشأتهم وتناسلوا فيها فكانوا أشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في أوربا ، من ورائهم قبور أجدادهم ومهاد عبادتهم وكل مايقدسونه ويحترمونه ، وأمامهم شعوب يكرهونها ، وأديان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراءى لهم أن الباريء تعالى يلعنها . وأهم

ما أخر الاتراك وقادهم الى انحطاطهم ذكرى مجد سالف واعجاب وطني لاتناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم : فكانوا يستهينون ولهم القوة بالاخطار التي تهددهم فاذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين واذا غلبوا حملوا على رؤسائهم »

هذا رأي المؤرخ الافرنسي في العثمانيين وعلة انحطاطهم . وقال غيره واغرق ان شأن الاتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها اذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلا موقتاً ضربوا خيامهم فيه اذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم في الارض التي ينزلونها سوى آثار أطنابهم وعمد خيامهم فقط

***

اظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض عمالها مثالا مجسما من التجدد في الممالك وبدت أمارات قوته بعد ان قرض المماليك من مصر فلم يسع الباب العالي الا الاعتراف بسلطته ومراعاته ومحاسنته شأنه مع كل عامل أحرز قوة على شرط أن يؤدى الجباية في أوقاتها ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي أسعد طالعاً من سلطانه لانه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما اصطدم به السلطان محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصريين قبولاً لدعوته واستعداداً للمدنية. وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التى استخدموها للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون تعصب لقومية ولا عصبية شعوبية

فقام بما أراد فى مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد بل فتحت مصر بفضله صدرها لذلك . بيد أن محمد علي لم يقف عند الحد الذى بلغه من الاستئثار بوادي النيل وطمح الى التوسع فى الملك . ولكن أى البلاد يفتح؟ هل يتوسع فى أفريقية ؟ في صحراء ليبيا وصحراء النوبة . وهى أصقاع لاتوازى العناء وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل فى شمالى أفريقية أو فى أواسطها

أم يقصد الشام وهى مفتاح كل فتح وفيها من العمران مايوازى العناء فى استصفائها وبينها وبين مصر من وجه الشبه مالا ينكر ثم لا يصعب عليه اذا خفقت عليها أعلامه أن يتقدم الى الامام ويملك من بلاد العرب والترك ماطاب له ولا يعلم ما تحدثه الايام

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد أن خلق له سبباً معقولا لفتح الشام . وذلك ان بعض فلاحى الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعنات عمال محمد علي بالجندية والضرائب فلم يسعهم الا أن يهاجروا الى جهات غزة ملتجئين الى والى عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي ارجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام فامتنع الوالى من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد فاستشاط محمد علي غضباً خصوصا وهو الذى كان استرضى خاطر الدولة على والى عكا وكانت غضبت عليه ودفع عنه ستين الف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه فتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فامر سنة ١٢٤٧ هـ باعداد جيش للسفر اليها عن طريق العريش وطريق البحر فى آن واحد وذلك لمحاصرة عكا من جهتين وعين ولده قائداً عاماً للجيوش وسليمان بك الفرنساوى قائم مقام له وجند ستة الايات من المشاة وأربعة من الفرسان ومعهم أربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن . توصل ابراهيم باشا مع الاسطول الى حيفا وفتحت له غزة ويافا والقدس ونابلس وكان أهل حيفا يبلغون اذ ذاك ثلاثة آلاف نسمة وعكا أشهر مدن الشام بحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل فدام حصارها نحو سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة ومن البر ثلاثون الف جندي وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين الف مقاتل بقيادة عثمان باشا والى حلب فترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا والتقى في ضواحى حمص مع

القسم الآخر بالجيش العثمانى الذى كان كأخلاط الزمر لا نظام له ولا دربة فابلى المصريون بلاء حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصى وغرق كثير منهم فيه واختفى عثمان باشا فى حماه ثم احتل ابراهيم بعلبك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين اتوه بانفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الاتراك فى أرض حمص وأتاه الامير بشير الشهابى الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بفتح المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية وأخذ عبد الله باشا والبها أسيراً وحمل الى مصر مكرماً ثم فتح الاسطول المصرى سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور

وبعد أن فتح ابراهيم عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير وامراء حاصبيا وراشيا فجمع علي باشا والى المدينة عسكرا من الاكراد واحداث البلد قدر بعشرة آلاف وكشف ابراهيم باشا بمنظاره جنود الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادى لمقاتلة الاكراد ونبه على العسكر النظامى أن يقاتلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم بل يطلقون البنادق فى الفضاء فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الاكراد جهدهم حتى غلبوا وفى أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم

ويؤخذ مما قاله البيطار أن ابراهيم باشا قد ساعده الامير بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس لان عبد الله باشا والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان ذلك من أسباب الغلاء الذى وقع في الديار الشامية وأن ابراهيم باشا بينما كان جيشه على عكا يقاسى الاهوال ويتجندل منه الرجال اثر الرجال جاء عباس باشا ابن محمد على باشا الى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم وافترق أهل جبل لبنان وتلك النواحى فرقتين فتابع النصارى منهم الامير بشير المتفق مع ابراهيم باشا وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس

وحمص ودخلهما بلا قتال . قال : وتوجه ابراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر وعاونه أهل الجبل من المسيحيين والدروز وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع اليهم ابراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ثم دخل عسكر ابراهيم باشا عكا من الابراج على السلالم وذكر بعضهم أن من جملة من قتل من عسكر ابراهيم باشا اثنا عشر ألفاً ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ ارسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه انا لا نمكنك من الدخول أصلا . وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الى لقائهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوه قتالا يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل أو رجلان ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها على باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد شوربجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو أربعة آلاف وفرّ باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين ألفاً وغنم أموالهم وعتادهم . وسار بعد ذلك الى حماه فحلب فملكها بلا قتال . ثم جاء إنطاكية وعينتاب واللاذقية . واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتله عظيمة . وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين الف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهزم الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والاسرى ٣٠٠٠ وتقهقر الجيش التركي الى حلب . وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه أهلها خوفا من انتقام ابراهيم باشا فتقهقر الى بيلان فتقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين

مدفعا . وكان غنم منه أولا اثنى عشر مدفعاً ثم غنم أربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين أربعة آلاف وقتل من المصريين خمسمائة وخمسون ووقع فى يد ابراهيم باشا الفان من العساكر النظامية اسرى من الارناؤد والهوارة فأعطاهم الامان وادخلهم في جملة جنده واختفى حسين باشا ولم يعرف له أثر واجتاز ابراهيم باشا جبال طوروس. وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر وفي رواية اخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات ، ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين الفا فالتقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا أسيراً في أيدى المصريين وانهزم الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الوقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون ألفاً

ويقول مشاقة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى أربعين الفا من الترك على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثنا عشر الفا وكان أبقي من عسكره جانباً للمحافظة في البلاد المفتتحة وهلك الآخر في الحرب أو الوباء فغلب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لِمَ لمْ تستطع الدولة أن تجيش في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل أسطولا الى عكا يصدُّ عنها أسطول محمد على باشا أو يقيم العثرات في سبيله كما انه استغرب كيف ان العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية أعدائهم وانهزموا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً وألفى أسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جنديا .

وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول حتى وصل الى كوتاهية وأراد أن ينزل بورصة بحجة انه ليس له في الاناضول حطب ومؤنة في الشتاء وكان الطريق الى الاستانة أمامه مَهْيَعاً لا يقف فيها ما يوقف سيره . وأهل الاناضول

والاستانة راضون عنه . وكان ابراهيم باشا يشيع أن مقصده من غزوته هذه توطيد دعائهم السلطنة . وكانت حاشيته من الاوربيين تحثه كل الحث على أن يواصل السير ويفتح الاستانة وأن لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما أخذه من آسيا الصغرى . ولو استمع لهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلا من دولة الاتراك فأعاد محمد على بذلك الدولة العربية

قال دي لاجوفكيير ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد وهذا الطموح بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك وهذه المشكلة التي كان يتأتى أن يكون منها عراك بين قوميتين العربية والتركية بقيت مقصورة في دائرة معينة من الحرب لم تتعد حد القتال بين ملك وأحد عماله الناشزين عليه . ولما رأى السلطان محمود ما آلت اليه حاله عرته الدهشة وداخله الفزع فطلب معاونة الدول العظمى علناً على الثائر محمد علي باشا ، وحرص خصوصا على معاونة روسيا التي أصبحت بعد معاهدة أدرنه ترى نفسها حامية الدولة العثمانية وليس من مصلحتها أن تكون هذه الدولة قوية مقاومة . فاخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي . واستدعى فيلق البغدان وهو مؤلف من أربعة وعشرين الف مقاتل ليأتي الى الاستانة وعقدت معاهدة في كوتاهية على أن تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمد علي ويرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك والخطبة تلقى في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين دعيت معاهدة (خُنْكار اسكله سى) وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضايق في قبضتها فهلعت قلوب اوربا لذلك وأخذت انكلترا تحسب لهذه المعاهدة الف حساب

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقره في انطاكية فكان يحضر

أحيانا الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أثم حالة بلاد الاكراد وكانت منتقضة على الدولة العثمانية اذ ذاك . وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية « الحاج ابراهيم، والي جدة والحبشة وسر عسكر حالا » وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا « سر عسكر عربستان » أي قائد جيوش بلاد العرب

وفوضت ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتها الى حنا البحري وكان هذا من المقربين جداً من محمد علي . ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) وأقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكما مستقلا ورجح مشاقة ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي أفنت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي دمشق ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ أوامره في انحاء البلاد البعيدة . وعهد بتنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري . وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الرفق بدمشق اكثر منها في حلب . لان الحلبيين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ولم ينزلوا عن القلعة حالا ، وقال مشاقة بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالا لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك بعض أعوانه

وكان من أول أعماله الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية واقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة وترتيب المالية وجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وأرباب النفوذ ان استثقلوا ظل الدولة المصرية وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمص دماء الضعفاء مع ان البلاد رأت في أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن

في ربوعها وأحيت الزراعة والتجارة والصناعة وعمت تربية دود الحرير ودود القرمز واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجرى في قرنايل (لبنان) وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيساً يتقاضى الامير ضعفيها ويدخر في خزانته الخاصة المال الزائد على المفروض . وأكد كثيرون ان بعمله هـذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم . وأخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيهـا الثائرون مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس . وخرب العلماء والشعراء ، ورخص للاجانب في ارسال معتمديهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه ابراهيم ـ عملا بايعاز أبيه ـ لتجنيد الشبان ولولم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً وأعظمها خمسمائة قرش فان هـذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع معظمها عليهم مثل أهل حلب وأهل دمشق

لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ماوقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنة بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيان النصيرية فندب الامير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكراً خيم في البهلولية فهرب النصيرية وتركوا مواشيهم وغلالهم وأمتعتهم وفروا بقضهم وقضيضهم ففتحها المعسكر وأحرق لهم خمس عشر قرية وقطع أشجارها ثم أحرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين اخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الامير والنصيرية . وعلل مشاقة هذه الوقائع بان المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر وطلب أموال أميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتمنون رجوع حكم الاتراك وابتدأ الناس

ينفقون عليهم واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ مركزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فارسل الحاكم عسكراً لقتالهم من لبنان وحاصبيا وراشيا فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ولعدم العناية واستخفافهم بالخصم آلت الحال الى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى اللاذقية يتعثرون باذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكراً كثيراً وقهرت أهلها

وأوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بألفي مقاتل الى طرابلس سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٣٣ م ليجتمع هناك بسليم بك أحد قواد المصريين لتأديب العكاريين والحصنيين والصافيتيين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع والغالب أن وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى صافيتا وعكار والحصن أو امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت واطاكية واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج أهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو عشرين يوماً وكان لبيت أبي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنة ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فلما ضاق الحصار بابراهيم باشا أرسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكراً ولا مالا فرضي قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته فرجع على عقبه في الحال واشتغل بالقتل والنهب والسلب فهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بعسكره . واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من أهله ولم يزل يتبع أثر قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله

في دمشق وقتل أربعة من أولاده بالسيف وأمر بجمع السلاح من جميع البلدان

لاجرم أن ابراهيم باشا اخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو مافعل أبوه في مصر وكان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه الى حين لان صاحب البلاد الاصلي لم يقطع آماله من استرجاعها وهو يسعى بكل ممكن الى استخلاصها من غاصبها وكل ماتنفر منه قلوب الرعية يفرح منه لانه يخدم مصلحته فمسألة التجنيد قللت من أنصار الحكومة المصرية في البلاد لسهولة اعتياد الناس الجندية في ذاك العصر اذ أصبح الناس يعدون التجنيد من باب القاء النفس في التهلكة وزال من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف وهذا الروح كان قد ضعف في الأمة بعد أن حكمها الغرباء قرونا بالعنف والقهر . قال في دائرة المعارف الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من أهلها الى آسيا الصغرى والعراق ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية نتج منه انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان الغضب العام لم يكن أقل منه . وجاء في تاريخ حماه ان ابراهيم باشا كان يحشد الناس لبناء الثكنة العسكرية في حماه ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه الى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الانهار وربما قلم الانسان عين نفسه أو قطع اصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية

ولقد اتفق دروز وادى التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وأبوا تجنيد أولادهم فأرسل والى دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فالتقوا به في جنوبي اللجاة في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا فقاتلوه وقتلوه وأهلكوا خلقاً كثيراً . ثم أنفذ ابراهيم باشا احد رجاله شريف باشا الى قرية لم الزيتون في وادي اللوي في أربعمائة فارس فقتلهم الشيخ حمدان الدرزى عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا أن سبب هذه

الوقائع ان ابراهيم باشا طلب ١٨٠ نفراً للجنود من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان وأرسلهم الى عكا فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عاد الى بلادهم قلبوا ظهر المجن فتوجه اليهم الجند بقيادة علي أغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر أغا أبوجيب فعقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة فى هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الانفار وأرادوا الاستعاضة عن الاشخاص بالبدلات العسكرية. فقال البصيلي اني ارسل مراسلة استشير بها أفندينا وعلى ذلك قر القرار . وفي تلك الليلة كبست الدروز العساكر وأذاقتهم كؤوس المنية ، وقتل أبو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز ، ولم يسلم من القتل سوى البصيلي وخمسة عشر نفراً. ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الوقعة التى قتل فيها الفريق محمد باشا وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم أن المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامى . وروى مشاقة أن العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلا من الهوارة قتلوا الا قليلا ، فأرسل ابراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع ، مع أن الدروز يومئذ لم يكونوا أكثر من ١٦٠٠ مقاتل ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أخرى فرأى الرعب قد دب في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى أن قادوهم الى سهل دامة وهناك رجعوا عليهم وأعملوا السيف فيهم وفتكوا

بجموعهم . ولما عرف ابراهيم باشا أن عسكره ذعر من شجاعه الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كاوت بك يستحضر منه محاولا قاتلا فرفض هذا إجابة طلبه وحاول أن يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القسوة التى تشمل الحريم والاطفال معاً

أما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولا والرعية ثانياً. ولما عجز عن اخضاع العصاة ألزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني ألقاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشا وأتوا الى اقليم البلاّن

وكان دروز وادى التيم واقليم البلاّن ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان . ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكراً من الارناؤط فأنجده أبوه باربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعرة أيضا فلم يظفر بهم وكانت دروز البلاد تنجد دروز حوران سرّاً اولا ثم أخذت تنجدهم علنا ـ أما نصارى لبنان فتجندوا أولا مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم

وتجمع العصاة فى قرية حنية من اقليم البلاّن فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلا . وبلغ شبلي العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعرة وحاصر العسكر المصري في سراى حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين واضطرمت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ففر الجند المصري منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بمن

معه وأعمل في اقفيتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلثمائة رجل وتشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون . ثم جمع ابراهيم باشا ماتشتت من عسكره في البقاع وعاد فخيم في قرية عيحا قرب راشيا فاتته الدروز وتحصنوا قبالته في غابة هناك وانتشبت الحرب بينه وبينهم فلم يظفر بهم . ثم اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكا فهجم عليهم ابراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب . فقتلوا من الجند المصري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطرواعقيبها الى الفرار . قيل انه قتل من الدروز في الوقعة الاولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم . ثم حدثت وقعة في قلعة صخور وتفرق الدروز وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فاجابه اليه وجعله قائدا على الف فارس هوارة . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفاة فاستسلموا له ومات من عسكره « ٥٠ » جنديا دنقاً

* * *

بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر أمره الى ابنه ابراهيم باشا باحتكار اصناف الحرير للحكومة وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي وبتجهيز عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الحنق لنزع السلاح من الشاميين ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطيء الاردن ، وفي هذه الوقعة التي انتهت بقتل قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق قتل ابراهيم باشا كثيرا من زعماء الاتراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه وأخذ الدروز والنصيرية والموارنة يستعدون للثورة تهيجهم عليها عمال الدولة العثمانية وانكلترا تحرض العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روي كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنتين التاليتين لامر التجنيد نحو عشرين الفاً

وممن انتقض على ابراهيم باشا أهالي الكرك فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حامية من جنده لم يمض إلا قليل حتى تمرد السكان وذبحوا الحامية

والموظفين عن بكرة أبيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آتية الى مصر فأضلوها الطريق وأهلكوها الا قليلا

كانت الدولة العثمانية ـ بمعاونة انكلترا ـ لا تفتأ منذ دخول المصريين الى الشام تدس الدسائس في البلاد ، وتستميل رؤساء العشائر وأرباب الزعامات والاعيان بالمال تارة والوعود الخلابة أخرى . وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثانى ـ وهو خمس سنين أيضاً ـ ومضى أكثره وأدى المقرر عليه من المال ارتأى العثمانيون بايعاز انكلترا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل ، وفي رواية في مائة الف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها طائفة من كبار ضباط روسيا وبروسيا ، وزحف ابراهيم باشا في أربعين الفاً ، حتى انتهى الجيشان الى سهل نزيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك القتال بين الجيشين ثماني ساعات ونصفاً ، فتراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة آلاف وقيل أربعة وأسر اثنا عشر الفاً ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الوقعة ١٦٦ مدفعا و ٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين أربعة آلاف ، وقتل المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة اسداسهم

انتهى خبر الهزيمة الى الاستانة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلوس ابنه السلطان عبد المجيد فتى في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي وليس للدولة جيش وقد فقدت اسطولها في الاسكندرية سلمه لمحمد علي أمير البحر احمد فوزي باشا . فرأى السلطان أن يسادد ويقارب ، فارادته الدول على أن يتربص ريثما يتوفقون الى حل مرضيّ باجماع الآراء بينهن ، فكان من ذلك حل المسألة المصريه العثمانية بالطرق السلمية

الحربية. فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تجدد معاهدة (خُنكار اسكله سى) بين العثمانية والروسية وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول على ان تبقى المضايق والدردنيل تحت اشرافهن . وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكا وراثيا له ولاولاده من بعده فارضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاضدة فرنسا، وقضى على محمد علي أن يخرج من اذنة والشام، وان لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا أي فلسطين من أرض الشام . فقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا

بيدَ أن محمد علي أبى ان يخرج من الشام، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستوپفورد فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور، وقاومت عكا بعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية قذائفها ثلاث ساعات أصابت مستودع البارود فانفجر وقتل عدداً كثيرا من الرجال، ثم اضطرت العساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله وتناصره برأيها ومعاونتها الادبية

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ ـ ١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلخانة أو البراءة السلطانية، وهي أول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحريتها، ويضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد، ويطبق القانون العسكري، وغير ذلك من الامور الادارية، فصفقت أوربا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته، وكان هذا القانون مما أوحت به انكلترا وأملاه عقلاء الساسة من الاتراك في العاصمة

ولما أحس أهل لبنان بواسطة دعاة انكلترا ان الدول ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة ـ ان لم ينجل مختاراً ـ أخذوا يناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المتسلمين من المصريين . وكان الامراء الشهابيون واللمعيون يقوون العامة سراً ويحثونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس باتفاق الدول الاربع النمسا وانكلترا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم . واشتدت الفتنة بين أهل الجبل والامير بشير ، وأخذت البلاد بالخراب ، المتصل ، وحرق ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبى حريماً

وكان أمير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته

وقبض المصريون على ٥٧ رجلا من أعيان لبنان ـ بينهم أربعون من أمراء الشهابيين ـ كانوا يدعون أهل بلادهم لخلع طاعة المصريين ، فنفاهم ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، وأخذ أعوان أمير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيل وطرق للغارم

وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي ، في أربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني وألفي جندي أوربي . فأخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخل البلاد ويستدعي جنوده من الساحل . وبحسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن أقل من عشرين الف جندي

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فرّق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبيوت الارامل والايتام ، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي ،

خارجاً من « باب الله » ، ونزل في سهل « القدم » ومنها قصد الى مصر عن طريق البر

وقبل مسير ابراهيم باشا من دمشق أرسل خالد باشا التركي من الساحل احمد أغا اليوسف في شرذمة من الجيش ، فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل ، فهزمه شر هزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة . اما احمد أغا فنزل بعسكره بعيداً عن دمشق في احدى قرى الزبداني ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالامر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام ، فخرج أهل دمشق لوداعه ، وخطبهم وحرّضهم على الاخلاد الى الطاعة والسكينة ريثما تعود الحكومة العثمانية

وعينت الدولة علي باشا ـ الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا ـ وكان أشد الاتراك تعصباً . وبقي قنصل انكلترا المستر وود ـ الذي أثار الموارنة على ابراهيم باشا ـ مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة أعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله وتنصب ذاك فتنصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمير مطلق

أراد محمد علي أن يقاوم دول اوربا ويظل في الشام . ولكنه علم ببعد نظره ان ذلك متعذر ، لان اسطولها ضرب بيروت وأحرق الاسطول المصري وأنزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان الموارنه بعد ان كانوا عضد ابنه ابراهيم أصبحوا يعاونون الاوربيين على طرده من الشام . وتقدم أمير البحر بابيه امام الاسكندرية ، وأخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لانكلترا ـ بالاتفاق مع النمسا ـ في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكانه خلع طاعة المصريين

والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة اخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانكليزية وأن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها

* * *

كانت حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها، لانها وضعت أصول الادارة والجباية، ورفعت أيدى أرباب الاقطاعات، واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ولم يخلص من ذلك الا الامير بشير والى لبنان فانه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر، وظل يتصرف بلبنان . وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين

قال مشاقة : وكانت الدولة التركية ذات خبرة باحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية، فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعاً بارجاع نفوذهم . وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز في حوران ووادي التيم، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم في الشام بالحروب والقلائل اهـ .

ومن مآثر الحكومة المصرية ـ التي عددها ـ مشاقة تجفيفها المستنقعات وتصريف الاقذار في مجار خاصة وتحديد أسعار اللحوم والعدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم وطبقاتهم لاتكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه وانفاق كل مال في وجهه المخصص له . ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لانه اعتاد أن يكون محكوما لا حاكم نفسه ، عبداً لا حراً . وأكد ان الانكليز استخدموا رجلا اسمه المستر وود وكان من رجال السياسة فجاء كسروان

بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية وأخذ يبث الدسائس حتى اعلن الكسروانيون العصيان وقاتلوا جيشا من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال أياما وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً ، وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار

ومدح مشاقة الامير بشير الشهابيّ الذى كان عضدا قوياً لابراهيم باشا وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ م الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت على الساحل الى مالطه فبقي فيها منفيا ولم يستطع أن يعود الى امارته. وقال : انه كان شجاعاً مقداماً وقائداً محنكا وسياسياً داهية خدم الجزار بكل أمانة ونشاط وخدم خلفه وحفيده مثله وخدم الدولة التركية والدولة المصرية وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها وكان صادقا أذا وعد أمينا على واجبه ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر

وانتقد مشاقة على حكومة محمد علي تقاعسها عن اشهار استقلالها على الدولة التركية ، مع انه كان من أسهل الامور بعد ان اكتسحت البلاد ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكا مستقلا وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنبية وعقدمعها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان . ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية لاجبرتها على الاعتراف بسيادته، لانه استحال عليها اخراج جنوده من الشام أو صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم ، أو لكانت على الاقل اضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً

* * *

اثبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصري بل العربي اذا تهيأ له زعيم

عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته وانه لم يضره في القرون الماضية الا فناؤه في الحكومة التركية بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والتركي اخوان . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل ان الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلا عما يماثلها

كتب المستر برانت ـ قنصل انكلترا في دمشق ـ الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ ما تعريبه : « لما كانت الايالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضي المهملة . وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارجاء الواقعة حوالي حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية . وفي هـذه الاماكن اكره العرب على احترام سلطة الحكومة وجعل السكان يأمن من اعتدائهم . وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي منظم وغير منظم بامرة ابراهيم باشا . فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الامن ومد رواق الثقة

« وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك اذ كان عليها أن تصلح عدة امور مختلفة وأن تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التي كانت سائدة

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من

الذل لا تطاق . ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل

« وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فاعفوا من الخدمة العسكرية . والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة اسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات . وكم من مرة ذهبت الجنود بإمرة ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نقف منها . وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى فى مدارج النجاح والنماء فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء واصابت شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن المديدة في جهات حوران وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون . »

قال « ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقاص ظلّ سطوتهم ـ وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة وخلفت الرشوةُ والتبذير في ادارة الماليـة النزاهةَ والاقتصاد ومنيت المداخيل بالنقص واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول انه لا يوجد ثمّ ظل للامن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التى تركها المصريون »

هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزى. وقال بيربيه الافرنسى في كتاب « الشام على عهد حكومة محمد علي » ما تعريبه « ما من

بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظهر من مظاهر الحياة وليس مثلها في البلاد قضت الشقاء من تقلبات الزمان وسقيت بالدماء فان صُقعها المدهش وجمال اقليمها وتنوعه ومركزها المهم الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نبهت اطماع الفاتحين وجلبت غير مرة على الشام ويلات الحروب

« وكانت الشام على عهد الاتراك العثمانيين مقسمة الى أربع ايالات : حلب وطرابلس وعكا ودمشق. وقبل مجيء ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تبعت السلطنة، فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان. وكثيراً ما كان السلطان سلطانا بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى أربع ايالات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة. وكثيراً ما كان الباشاوات يشنقون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران. ولطالما شنقت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق

«وكان الدم يجري لاقل شبهة والعذاب الاليم يحل فيَشنق الباشوات « ويخوزقون » ويجعلون الحصاة على الحديد ويحزون الرءوس. وبذلك كان يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضوا للحرق والشنق »

قال : « ومن المحقق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة. وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين. وذلك بان استمال اليه قلوب أشرافهم وأعيانهم والقى بينهم الشقاق ضمناً عند الاقتضاء وبذلك تيسر له حكم البلاد ووضع ضرائب شديدة عليها

ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان بختلفة وكان شريف باشا حاكما على الشام كله وتحت يده الحكام وكان طماعا في المال» .اه

* * *

هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا وماهي في الحقيقه الا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منها ابنه ولا يصدر الا عنه فى الخطوب ولا يقطع أمراً دون الرجوع الى رأيه حتى جاءت احكام المصريين نموذجا فى الادارة

ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور لايعمدون الى حسن الادارة ويتظاهرون بالاحسان الاّ يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم في اعنات الرعية والقاء الحبل على الغارب

وهذا مادعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار وهو الجلاء الذى اقتضته الدول الكبرى بل الدولة الانكليزية التى حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام لتكون هي الحاكمة المتحكمة فى مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التى تحب فرنسا وتساهمها سياستها أحيانا . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها فى البحر المتوسط . واذا اردنا أن ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على امانى محمد علي بل امانى العرب من انشاء دولة عربية كما أوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين فى نجد والحجاز حربا عوانا . لانه كان

يخشى أن يؤسسوا أيضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عثرة في سبيل امانى تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب

ولو نظرنا الى ماوقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح لم نره الا قتالا مع العثمانيين أى قتال الجيش المصرى مع الجيش العثماني . واذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا أو عن دمشق أويوم حمص مثلاً اناس من الاكراد والهوارة فهؤلاء ليسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفئة أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى صفوفه فأخذوا يقاتلون معه ولم يلتو القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الاجانب وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال والا فان المدن والسواد الاعظم من الناس استقبلوه واخلصوا له وشعروا بحسن ادارته ولاسيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم ادركوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك

حركة النشر والتأليف

﴿ كتاب السياسة لافلاطون ﴾

« استخراج احمد بن يوسف »

المطبعة الوطنية في بيروت ٭ بعناية جميل بك المعظم ٭ ٧٤ ص بقطع الزهراء

دارت مناظرة بين أبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب[1] وبين معاصر له يتعصب للفرس ، ويرى ان اليونان انما برزت في الحكمة دون السياسة . وأراد

(١) الذي طبع له في القاهرة سنة ١٣٣٢ كتاب المكافأة في ١٢٨ صفحة (توفي في حدود سنة ٣٤٠ ٭)

أحمد بن يوسف أن يدله على أن لليونان يداً في السياسة أيضاً فاستخرج من كتاب السياسة لافلاطون ثلاثة عهود :

الاول عهد الملك أذرياتوس الى ابنه لما استخلفه على المملكة ، وفيه الكلام على الرعية والوزارة والجندية والحجابة والعمال وأبناء الملك وخدمه وحرمه ، وعلى المالية والخراج والحرب وغير ذلك من أمور المملكة

والثاني عهد من وزير بلغ سن الشيخوخة الى ابن له مرشح للوزارة ، صنّف له فيه أخلاق الملوك وما يستشعره الوزير بينه وبين نفسه ، وما يستشعره مع الملك ، ومع خاصة الملك ، ومع المتطلعين الى منزلة الوزارة

والثالث عهد رجل من أرفع طبقات العامة الى ولده فيما ينبغي أن يعمله في تصرفه

وانشاء أحمد بن يوسف من أعلى طبقات الانشاء . ونسخة الكتاب المخطوطة محفوظة في متحف باريس ، فاعتمد الاستاذ المفضال جميل بك العظم في نشره على نسخة منقولة عن ذلك الاصل . فنشكر له هذه العناية

نقائض جرير والاخطل - لابي تمام

وردني نسخة من هذا الكتاب . ولما كان قبلُ بعيد المنال عزيز الوجود ولم يعثر عليه جُلّ الاقدمين ولا ذكره أصحاب الفهارس والبرنامجات ظننتُ أن سطوري هذه - على قصورها عن المغزى - لعلها يكون فيها سداد من عوز ، وبلغة للمستوفز ، لا سيما والناشر - وهو الأب صالحاني - تركه غُفْلا :

(١) قال الخفاجي في شفاء الغليل رسم « فتح » مانصّه : « قال أبو تمام في شرح المناقضات : يقال فتح السيف اذا انتضاه وأنشد ليزيد بن مفرّغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعتَ وكلُّ أمرك لا يضيع

وانما ذكرناه لانه استعمال غريب » اه وصحّف الرواية وصوابها وكلّ أمرك للضياع . والبيت مطلع تسعة أبيات له راجع النقائض ص ٨ ، إلا أن المعنى لم يرد في هذه المطبوعة أصلا ، فلعله وقف على نسخة غير هذه . وليعلم أن الخفاجيّ وتلميذه البغدادي صاحب الخزانة يسميان نقائض جرير والفرزدق المناقضات أيضا

(٢) ثبت في ختام النسخة خطّ (ورق ١٤٤) ونصه : قرأته جميعه في المحرم من سنة خمس وعشرين وخمسمائة وكتب النعمان بن وادع [1] بن عبد الله بن مسلم اه وهذا الرجل ذكره العماد في الخريدة (خط نسخة ليدن ١٢٦) وياقوت في معجم الادباء (١ : ١٦٨) قالا : وتوفي بعد سنة ٥٥٠ ه ويكني أبا عديّ — إلا أنني وأنا معنيٌّ في هذه الايام بجمع أخبار أبي العلاء المعرّي التي سميتها « أبو العلاء وما اليه » استفدت من هذا الخط فائدة جليلة وهو أن كلى الرجلين أخطآ في سرد نسبه فزعما أن النعمان بن وادع بن عبد الله بن أبي المجد محمد أخي أبي العلاء وهذا غلط منهما لا محالة وخط الرجل أثبت . ومسلم هذا لعله هو عم أبي العلاء . وورد ذكره في نكت الهميان للصفديّ في خبر أبي العلاء مع الوزير محمود بن صالح وفي سر العالمين المنحول للغزاليّ المطبوع في بومباي ص ٣٨ — ولم يذكره العماد في بني سليمان ولا ياقوت فليُعلَمْ

المكاية الشرقية في لاهور (الهند) عبد العزيز الميمني الراجكوتي السلفي

(١) وكان أبوه أبو مسلم وادع قاضي المعرة واستولى عليها في آخر صفر من سنة ٤٨٩ ه وكان ذا همة مشهورة وطريقة في اليقظة مشكورة وتوفي في تلك السنة عينها — من ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٣٢ —